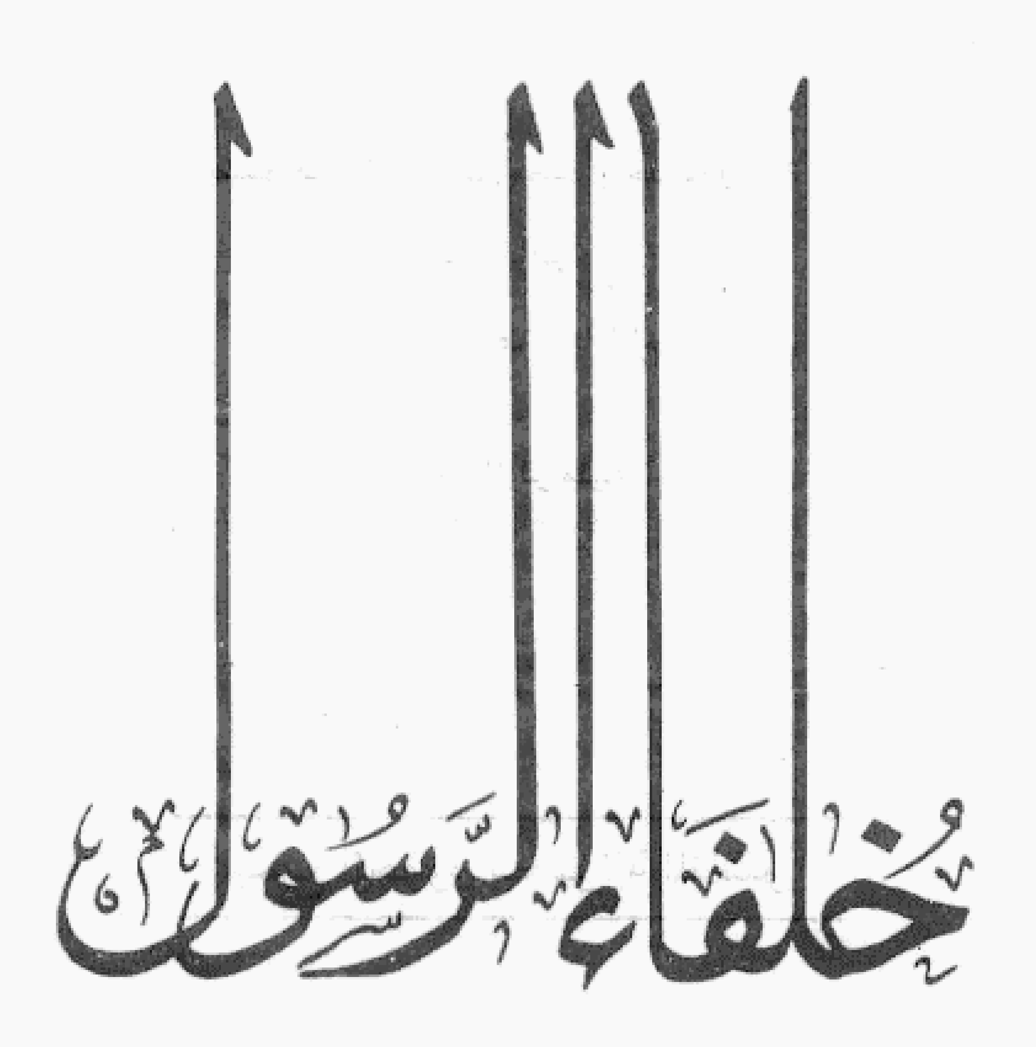
خالد محمد خالد



دار المقطم للنشر والتوزيع
القاهرة

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ ﴾

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

صدق الله العظيم

وجاء أبو بكر

الإهداء

يا أبا بكر ..

يا خليفة رسول الله ..

إذا أَذِنْتَ لي في هذه الكلمات ، أكتبها عنك ،

فتقبَّل - يا ثانِيَ اثْنَيْنِ - إهْداءها ..

لَيَبْلُغَنَّ الكِتابُ أَجَلَه ..

مكة ..

البلد الحرام الذي تتوسطه الكعبة ، موطن القداسات منذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .. تمضي الحياة فيها لافحةً مثل مُناخها .. راسخة مثل جبالها .. حالمةً مثل سمائها.

وأهلُها عاكفون على عقائدَ وتقاليدَ تسمو أحياناً حتى تبلغ أوْجاً بعيداً .. وتُسِفُ أحياناً حتى تبعث على السخرية والرثاء .. !!

وحول الكعبة أصنام مَبْثوثة ، تطفَّلت في غفلة الزمن على هذا الحرم الأقدس الذي ظلَّ قُروناً ولَبِث أحقاباً يمثل راية الله المرفوعة في الأرض ، تنادي أهل الحنيفية والتوحيد..

هي كذلك ، ظلت دهراً طويلاً حتى جُلِبَتْ إليها الأصنام ذات يوم ، وازدحمت حولها مع الأيام . حيث صارت مَهْوَى أفئدة قريش وما حولها . يعبدها الناس ويتَّقونها، ويتملَّقونها ؛ لتقرِّبهم إلى الله زُلْفَى .. !!

فهنا اللات ، والعُزّى ، ومَنَاة ..

وهناك ، أُساف ، ونائلة ، وهُبَل ..

وعشرات سِواهُن من الأوثان والأصنام ..

وإن مواكب العابدين لَتسعَى ليل نهار إلى تلك الآلهة المجلوبة ، والمنحوتة .. الآلهة التي لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تغني عن أحد شيئاً .. !!

لكل قبيلة إلهُها وصَنَمُها .

وكل طفل يُولد ، لا يلبث حين يدرك الحَبْوَ ، حتى يُقادَ إلى ربه ليعرفه ، وليسعى إليه فيما بَعْدُ ويَبثه أمَله ونَجْواه .. !!

وتاهت العقول في زحمة الخُرافة .. !!

وكان أمراً عجباً .. !!

* فذَوُو الأحلام الرشيدة الذين أنْشَئوا "حِلْف الفضول" حيث يقفون جبهة واحدة مع المظلوم ضد الظالم .. !!

* والذين استنُّوا للسلام منهجاً فَذاً ، وابْتكروا له سُنَّة باهرة ، فأسَّسوا نظام "الأشهر الحرُم" ، تَقَرُّ السيوف خلالها في أغمادها ، وتنام الأحقاد والثاراتُ نوماً عميقاً ، ويَلقى الرجل فيها قاتل أبيه أو أخيه وقد أمكَنته الظروف منه ، فلا يَحصِبه بحصاة ، ولا يقربُه بسوء ..!!

* والذين وضعوا للسؤدد الاجتماعي نظاماً رفيعاً ، فلا يُسمح لأحد أن يسود في قومه إلا إذا تفوَّق في هذه الخصال الست :

السخاء .. النجدة .. الشجاعة .. الحلم .. التواضع .. البيان ..

وكانوا يقولون : "موت ألف من العِلْية ، خير من ارتقاء واحد من السُّفْلة" .. !!

* والذين كان لهم سوق عُكاظ ، يُيَمِّمُونَ وجوهم شَطره من كل مكان ليلتقوا فيه بأشهى ثمار النبوغ الإنساني ممثلاً في شعر شعرائهم ، وبيان خطبائهم .. !!

ـ هؤلاء المُحلّقون عالياً ، تَرينُ على أفئدتهم هذه الغفلة العجيبة ، فَيَخِرُّونَ ساجدين أمام أصنام نَحتوها من حجارة أو عجنوها من صَلصال .. !!

مفارقات مُحيِّرة .. ولكن ليسوا في هذا وحدهم ..

"أثينا" .. وفي أزهى عصورها .. عصر الفلسفة والفلاسفة .. وعصر سقراط وباركليز ، كان أهل أثينا يعبدون "آلهة الأولمب" .. أصناماً كأصنام مكَّة ، بل إن أهل مكة كانوا ينظرون إلى أصنامهم نظرة إكبار وتنزيه .

أما أهل أثينا فكانوا يعبدون آلهة خلَعوا على بعضها أسوأ الصفات .. !!

* * *

ومع عبادة الأصنام التي سادت مكة ، كان هناك صنوف أخرى من العبادة تزخَر بها أنحاء الجزيرة العربية .

فكان هناك من يعبدون الشمس ، مما جعل الرسول عليه السلام حين بُعث وفُرضت عليه الصلاة ، ينهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت الغروب ، حتى لا يكون ذلك مُحاكاة ـ ولو غير مقصودة ـ للذين يعبدونها ، ويخرّون لها ساجدين لحظة الشروق ولحظة الغروب ..

وكان ثَمَّةَ من يعبدون الملائكة .. هؤلاء الذين ناقشهم القرآن فيما بعد فقال :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ .

وكان هناك مَنْ يعبدون الجن .. هؤلاء الذين سينعتهم القرآن بقوله : ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

وكان منهم عَبَدَةُ الكواكب .. الذين سيؤنبهم القرآن بقوله: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ .

وكان هناك الدَّهريون الذين روى القرآن فيما بعد قولهم :

﴿ مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ ﴾ .

ملائكة .. وجن .. وكواكب .. وأصنام .. ؟؟

أين مِلَّة إبراهيم وَسْط هذا الزحام .. ؟؟

إنه منذ القرون الأولى ، هاجَر إلى هذا البلد المنيع الآمن إنسان مُتَبَتِّل ، غادرَ قومه الكِلْدانيين ، وترك وطنه وأهله في بابل ، وجاء مكة حاملا كلمة الله .

وهنا في مكة حَطَّ رحالَه ، ورفع رايته ، وهتف بالتوحيد وقال قولته الباقية : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ..

وتَركَها باقية في عَقِبه ، مُدوِّية في أفق الجزيرة الواسعة . فماذا دهَى الناس .. ؟

وهل ضاعت الحنيفية المؤمنة الموحِّدة ، وسط الوثنية الطارئة ، والشِّرك الزاحف ..؟!

وهل أقْحَل هذا البلد الأمين ممن يُجدد للناس دينهم الأوَّل .. مِمَّن يرفع صوته مُذكِّراً بالحقيقة الدارسة .. ؟؟

كلاَّ ..

ولقد كان هناك عَبْر السنين والأجيال هُداة يبزغون بين الحين والحين ، يُلَوِّحُون براية إبراهيم عليه السلام ، ويرفعون أصواتهم داحِضين الشرك والزيغ ..

كانوا كثيرين ـ منهم مَنْ نعرف ، ومنهم مَنْ لا نعرف ..

منهم مَنْ سبق الرسول ﷺ بمئات السنين ، ومنهم مَنْ كان إرهاصاً بين يَدَيْ فَجره الطالع القريب ..

مِن الأوَّلين ، سُويد بن عامر المصْطلقي ـ جَهَرَ بعقيدة البعث ويوم الجزاء ..

وعامر بن الظَّرب العدواني الذي كان يقول لقومه :

"إني ما رأيت شيئاً قط خلقَ نفسه .. ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً .. ولا جائياً إلا ذاهباً .. ولو كان الذي يميت الناسَ الداء ، لكان الذي يحييهم الدواء" ..؟!!

وكان هناك المتلمِّس بن أمية الكِناني.. كان يتوسط قومه عند الكعبة ويَصدع فيهم بقوله:

"أطيعوني تَرْشُدوا ، لقد اتخذتم آلهة شَتَّى ، وإن الله ربكم وربُّ ما تعبدون" .

وكان هناك زهير بن أبي سلمى .. يُمسك أوراق الشجيرات التي اهتزت خضراء بعد أن كانت يابسة هامدة ويقول :

"لولا أن يَسبَّني العرب لآمنتُ أن الذي أحياكِ بعد جفاف ، سيُحيي العظام وهي رَمِيم" .. وهو القائل :

فلا تكتُمُنَّ الله ما في نفوسكم ليخفى ؛ فمهما يُكْتم الله يعلم

* * *

كان ثَمَّةَ هؤلاء ، ومِثْلهم معهم ..

ولكن لم يكن معهم سوى هذا الحنين إلى الحق ، وهذا الاستشراف الحدْسِيّ لغايات لم يَبلغوها ..

لم يُرزق أحدهم المنهج الكامل الذي يمكن أن يدعُوَ الناس إليه .

وكانوا يَبزغون ، الواحد تلو الآخر عَبْر السنين الطِّوال .

أما الآخرون الذين ظهروا قبيل بعثة الرسول ﷺ ، فعلى الرغم من أنهم كانوا مثل سَلَفهم بغير منهج واضح مفصَّل ، فإن رُؤياهم عن الحقيقة الروحية التي شَغلتهم كانت أكثر بياناً وإسفاراً ..

من هؤلاء : أبو قيس بن أنس ـ اعتزل قريشاً وأصنامها ، واتخذ له في بيته مسجداً لا يدخله طامِثٌ ولا جُنب ، وقال أعبدُ ربَّ إبراهيم ..

وقد عاش حتى بُعث النبي فأسلم معه ..

وكان هناك ثلاثة تركزت فيهم كل قوى الإرهاص بالدين المقبل ، هم :

قسّ بن ساعدة الإيادي ..

وزيد بن عمرو بن نُفَيل ..

ووَرقَة بن نَوفل ..

انعقدت أواصرُ قلوبهم على دين إبراهيم !!

وانسابتْ من أفئدتهم الضارعة : كلماتُ التوحيد كأنسام الربيع وَسْطَ الهجير الوثني المتسعِّر .. !!

كانوا يغنون للنبي القادم ..

كانوا يبشرون بالفجر الطالع ..

كانوا يؤذنون بالدين المقبل الذي سيعيد راية الله إلى مكانها ، ويُسوِّي بالأصنام التراب .. !!

وإلى هؤلاء جلس أبو بكر طويلاً ..

ولِكلماتهم الرطبة المؤمنة ألْقى سَمْعَه ..

ويغنائهم العذْب ثَمِل ..

وعلى حُدَائِهم سار ..

وفي ضياء حكمتهم الوُثقى ، وهُداهم المَكين ، أبصرت روحُه الطاهرة موكبَ النبوّة القادم ، فجلس ينتظر ، ويُعِدّ نفسه لأيّام الهُدى واليقين .. !!

ولْنَبدأ سيرنا في صحبة الرجل العظيم من ذلك الحين ..

* * *

هذا الرجل الذي يَشغل بين قومه مكانة مرموقة أهَّلَتْه لها كِفايته وحسبه ، يحمل في ذات نفسه شكا مُضيئاً .. شكا يُرَبّي في قلبه يوماً فيوماً العزوفَ عن وثنية قومه وضلالهم .

وإنه ليَمرُّ بالناس مُتحلقين حول أصنامهم ، وجَاثِينَ أمامها فتكْسُو وجهَه سحابةُ أسفٍ مرير ، ويسأل نفسه :

أيمكن أن يكون هذا صَواباً وهُدًى .. ؟؟

أناس ينظرون ، ويسمعون ، ويعقلون .. يخرّون سُجّداً أمام حجارة مرصوصة لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تبين . ؟ !!

ثم يردِّد قول زيد بن عمرو بن نُفَيل :

أربّـــا واحـــداً أم ألـــف رب   أديـــنُ إذا تقسّـــمت الأمـــور ؟

ويطول التَّساؤل ، وتزدحم النفس بالقلق ، ويبْرح طول الانتظار بالرجل المنيب الأوَّاب ، الذي ينزع إلى معرفة الحق نزوعاً حثيث الخُطى مضطرماً بالرغبة في التغيير ، والشوق إلى كلمة الله التي سيَفصل مجيئها فيما اختلف الناس فيه .

ويَحمله حنينه ، وتقوده أشواقه إلى الذين عندهم عِلْمٌ من الكِتاب .. الذين يعيشون في ذِكريات العقيدة الدَّارِسَة التي صَدَح بها هنا ذات يوم بَعيدٍ خليل الله إبراهيم .. الذين شَغلهم المصير الإنساني ، فرفعوا أصواتهم بعقيدة البعث والجزاء .. والذين طهروا قلوبهم تطهيرا من كل ولاء لصَنَم وآمنوا بربِّ إبراهيم .

هؤلاء الذين يُقلِّبون وجوههم في السماء ، وتخرج الكلمات من أفواههم كالأحلام السعيدة .

أيُّ حديث يَبْهَرُ "أبا بكر" ويستهوي لُبَّه خير من حديث هؤلاء .. ؟!

إن كلماتهم حين يَلْقفُها سمعه ، لَتَرِنُّ في رَوعه رنين الصدق .

وإنه لَيَتَتَبَّعُهَا كما يتتبَّع الطير الظامئ مواقع القطر والنَّدَى .

وهكذا كان يَسْتَرْوِحُ دوماً كلما أسعفه وقته بالجلوس إلى هذا النَّفَر الصَّالح ..

قُسَّ بن ساعدة ـ زيد بن عمرو ـ ورَقَة بن نوفل .. لم تكن قريش قد شَطَّت في عداوة هؤلاء واضطهادهم .

لأنهم ـ أولاً : كانوا عاكفين على أنفسهم ، لا يحملون دعوة منظمة ولا ديناً جديداً يُهدد دين قريش وتقاليدها .

ولأنهم ـ ثانياً : كانوا في مُرتفعات أعمارهم ، فقد أوشكت حياة كل منهم على الغروب ..

لكنَّ إعجاب رجل كأبي بكر ـ مجرَّد الإعجاب ـ بهؤلاء وبأفكارهم ، يُعرِّضُه لاستنكار قريش لا محالة .

فهو في ربيع العمر المرتَجَى ..

وهو سيِّدٌ في قومه الذين أولَوْه عملاً من أهمِّ أعمالهم وأجلِّها .. فهو يومئذٍ "حامل الدِّيات" ..

ويفكر أبو بكر في هذا ..

يفكر فيما يمكن أن يلحق به من ضُرٍّ ، إذا هو خرج عن الصفوف المزدحمة ، وعَلِمَ الناس منه حفَاوته بأفكار قُس ، وورقَة ، وزيد ..

إن قُسًّا ، وورقة ، وزيداً ، قد وضعوا عن كواهلهم كل علاقاتهم بالجماعة ، فلا يَخشَوْن بأساً ، ومع هذا فإن قريشاً ، وإن لَمْ تُناصِبْهم العداء ، لتَعمل جاهدة على كَبْح جماحهم ، وكلما ارتفع صوت زيد بن عمرو ـ وكان أعلى الثلاثة صوتاً ـ أغْرَوْا به قريبه الخطَّاب بن نفيل ، فأغلق عليه داره وحال بينه وبين الناس .. !!

فكيف بأبي بكر ، وعلاقاته بالجماعة مشحوذة ونامية ، وهو في قومه مِلْءُ كل عين وكل أُذن .. ؟!

أتأذَنُ له قريش ولو في مجرَّد انطوائه على أحلامه الجديدة ، ورُؤياه الصَّامتة .. ؟؟

وقبل أن يطول التردُّد بأبي بكر ، تلتمع خواطره ، فيرى القدوة والمثَل ... محمد بن عبد الله ﷺ .. !!

إنه في ربيع العمر والحياة ، وإنه حَسِيبٌ نَسِيب ، وإنه في قومه كألمع دُرَّة في التاج ..

ومع هذا ، فهو ـ في هدوء ـ قد عَزَف عن الأصنام ، وإنه ليقضي أيامه بعيداً عن معايِثِ الناس وعاداتهم . لا يكاد يلقى أحداً ولا يَدعُ أحداً يختلس منه وقته ، وأحلامَه ، وسكينةَ نفسه .. يتعبَّد اليوم بالتأمُّل ، حتى تأتيه عن الحقِّ بيِّنة ...

ويطمئن أبو بكر ..

إنه يستطيع أن يسلك الطريق نفسه دون أن تكون لقريش عليه ثورة أو مَوجِدَة .. مثل "محمد" تماماً ..

إنه لا يذكر الأصنام بسوءٍ بعد .. ولكنه أيضاً لا يذكرها بخير ..

لا يعبدها مع العابدين ، ولا يسجد لها مع الساجدين، ولا يتقرب إليها ، ولا يحس بوجودها ..

لقد جرَّد من نفسه أمَّةً وحده، ومضى يبحث عن الحقِّ، وهذا أعظم غرض تُناط به حياة إنسان .

وسرى في أوصال نفسه بَرْدُ اليقين .

فأبو بكر ، وإنْ يكن تجمعه ومحمداً سِنٌّ واحدة ؛ فإنه يرى فيه مثلاً أعلى وقدوة تدعو إلى الثقة ..

ولقد كان هذا حريصاً على صحبته ، حَفِيًّا بزمالته ، حتى لقد كان كما وصفته أم سلمة : "خِدْناً لمحمد ﷺ وصَفِيًّا له" ..

تذكَّر أبو بكر حال صديقه وصفيِّه ، فتبدَّدت مَحَاذِرُه من قريش ، وقرر أن يستجيب لحنينه ، ويمضي مع أشواقه إلى الحقِّ والمعرفة .

لكنَّ نهجه سيختلف عن نهج صفيِّه "محمد" ﷺ ..

تماماً ، كما ستختلف النتيجة بالنسبة لكليهما ؛ فبينما يبحث "أبو بكر" عن الحقيقة ، إذا "محمد" يَجِدُها .. !!

إن منهج "محمد" هو التأمل ، والإصغاء إلى الهمس الآتي من داخل الحقيقة ذاتها .

أما "أبو بكر" فمنهجه التفكُّر ، والإصغاء إلى حكمة الحُكماء ، ومنطق العابدين المبصرين ..

وهو طوال عمره مُولَع بحفظ روائع الثقافة العربية من شِعر ونَثْر ..

ومن محفوظاته الثَّرَّة الغنيَّة يُمِدُّ عقله بأسباب التفكير .

وهكذا بينما يعكُف "محمدٌ" ﷺ على تأملاته ، ويتلمَّس الحقَّ من طريق حَدْسه وتجربته ورؤاه ..

إذا أبو بكر يُسْلِم قلبه وعقله للحكمة التي يَبرق سَنَاها في كلمات هذا النفر الصالح ذوي التجربة السديدة المديدة : قُسّ ، وورقة ، وزيد .

ولا يترك فرصة تمكِّنه من التلقي عنهم والإصغاء إليهم إلا اهتبَلَها وفازَ بها ..

وإنه لَيحفظ أقوالهم حفظاً راسخاً ، ويعيش في رُؤاهم عيشة تُساعدُه عليها فِطرته العُظمى التي تريد أن تعرف الحقَّ وتبلُغه مهما يكن الثمن .. والتي رأت في هؤلاء بحكم سنِّهم ، وبحكم تجربتهم وحياتهم الطاهرة ، دليلاً قويماً إلى الحقيقة المرجوَّة ..

* * *

ذات يوم ، بعد أن تلقَّى "محمد" ﷺ رسالة ربه ، وآمن معه "أبو بكر" كان الرسول جالساً بين أصحابه يَستعيد ذكرى أيام شبابه فقال: "لستُ أنسى قسَّ بن ساعدة ، ممتطياً جَملاً أَوْرَقَ ، في سوق عُكاظ ، وهو يتحدث حديثاً ما أحسبني أحفظه" .

فقال أبو بكر : إني أحفظه يا رسول الله ، كنت حاضراً ذلك اليوم في سوق عكاظ .. ومن فوق جمله الأورق وقف قس يقول :

يا أيها الناس : اسمعوا ، وَعُوا ، وإذا وَعَيْتُم فانتفعوا ..

إن مَنْ عاش مات ، ومَن مات فات .. وكل ما هو آتٍ آت ..

"إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لَعِبَراً .

"مِهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تَمُور ، وبحار لن تغور ..

ليلٌ داجٍ ، ونهارٌ ساجٍ ، وسماءٌ ذات أبراج ..

يُقسم قسّ ، إن لله لَديناً هو أحبُّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه ..

"ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون .. أرَضُوا بالمقام فأقاموا ..؟ أم تُركوا فناموا"..؟!

ثم أنشد أبو بكر شعر قس بن ساعدة :

في الذاهبين الأوَّلين	من القرون لنا بصائر
لمَّا رأيت مواردًا	للموت ليس لها مَصادر
ورأيتُ قومي نحوَها	يَسعى الأكابر والأصاغر
أيقنت أني لا مَحَالَةَ	حيث صار القومُ صائر

* * *

هكذا كان أبو بكر يحفظ لهذا النفر الصالح ويتلقى عنهم ..

وهكذا كانت روحه عاكفة على ما يبثونه من حكمة ..

ولَكم كانت غِبطة نفسه، وحُبور روحه يتألقان أعظم الألَق حين يُبصر زيد بن عمرو ابن نفيل في جَلالِ مشيبه، مُسنداً ظهره إلى الكعبة ، منادياً الناس:

– "يا معشر قريش ، والذى نفسي بيده ، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري .."

"إني اتبعت مِلَّة إبراهيم وإسماعيل من بعده .. وإني لأنتظر نبيًّا من ولد إسماعيل ، ما أراني أدركه" .

ثم تقع عينه على عامر بن ربيعة فيناديه :

- يا عامر بن ربيعة ..
" .. إن طالت بك الحياة فأقرئه مني السلام " ..

كان "أبو بكر" يزداد طمأنينة وأَمْناً . كلما رأى "زيد بن عمرو" يشقُّ صفوف الناس المتحلقين حول الكعبة ويرفع عَقيرته في غير تهيُّب قائلاً :

"لَبَّيْكَ حقاً حقاً ..
تعبُداً ورقاً ..
عُذْتُ بما عَاذَ به إبراهيم ..

وأسـلَمتُ وجهـي لمـن أسـلَمتْ	لـه الأرض تَحمـل صَـخراً ثِقـالا
دَحاهـا ، فلمـا رآهـا اسـتوَتْ	على المـاء أرسَـى عليهـا الجِبـالا
وأسـلمتُ وجهـي لمـن أسـلَمتْ	لـه المُـزْنُ تَحمِـل عَـذْباً زُلالا"

ويحدِّث أبو بكر نفسه :

هذا وربِّ إبراهيم هو الحقّ .. ولكن كيف ومتى نصبح منه على يقينٍ .. ؟؟

ويوماً فيوماً ، كان وجدانه يمتلئ بِرُؤى التبتُّل والنسك ويَشغَفه الحنين إلى دين إبراهيم .. ولكن أين الطريق . ؟ ..

إن الذين زكُّوا في روحه ووَعْيِهِ هذا الشوق هم أنفسهم لا يعرفون .

صحيح أنهم على يقين بأن قريشاً ليست في دينها على شيء من حقّ ، وأنها أخطأت دين إبراهيم .

ولكنْ ، ما المنهج الجديد الذي يعود إبراهيم من خلاله بدينه وحقيقته ..؟

إنهم لا يعرفون ..

وذانِكَ صاحباه لا يعرفان .

أمّا ورقة ، فإنه عاكف على الأناجيل يتلوها ويَدرسُها ، عَساها تدلُّه على دين إبراهيم ..

وأما زيد ، فهائم مع أشواقه المؤمنة ، مُنطلق في بِطاح مكة تارة .. ولائِذٌ بالكعبة تارة أخرى .. ومُناجٍ ربه دوْما :

- "اللّهم لو أني أعلم أيَّ الوجوه أحبَّ إليكَ لَعبدتُك به ، ولكني لا أعلمه" .

إذن هو لا يعلم ، وإن كان قد أعلن الملأ من قريش أنه فارق دينهم ، واعتزل الأوثان والأنصاب ، ووأْدَ البنات ، وأجاب حين سُئِلَ عن ربه الذي يعبده :

"أعبد رَبَّ إبراهيم" ..

وتزداد الأشواق العارمة إلى الحقيقة ازدحاماً في رُوح "أبي بكر" ، فهو بفطرته لا تروي ظمأه أنصافُ الحلول ، لقد اتضحت له مَعالم الأزمة التي يعانيها الضمير الإنساني في قومه ..

وهو الآن يريد جميع الحَل ، وجميع الخلاص .. أجَلْ هذه هي الأزمة .. الانحراف عن دين إبراهيم إلى وثنية ضالة خاطئة ..

والمَخرج إذن ، هو دين إبراهيم ..

فمن يَدلنا عليه ..؟؟

إن أكداساً من الأساطير والرواسب قد طَمرتْ حقيقة هذا الدين في زِحامها وتلالها..

وليس أدلّ على هذا ، من أن الذين يعبدون الأصنام هنا ـ في مكة ـ يزعمون أنهم أبناء إبراهيم ..

ويَهُود الشام ونَصاراه ، الذين كان يراهم في رحلاته التجارية يزعم كل منهم ـ على ما بينهم من تناقض ـ أنهم أبناء إبراهيم وورثته ..!!.

فمن يأتينا بالحق المُبين ..؟

مَن يُعيد إلينا إبراهيم، ويُعيدنا إليه ..؟؟

مَنْ يدلّنا على الشِّرعة والمنهاج اللذيْن نعبد بهما ربنا الحقّ ، وتقوم بهما حياتنا ..؟؟

وتتوالى الخاطراتُ الذكية على القلب الذكي ، ويردد أبو بكر قول أمية بن أبي الصَّلْت :

ألا نَبِـــيٌّ لنـــا منّـــا فَيخبرنـــا ... مـا بعـدَ غايتنـا مـن رأس مجرانـا
إنـي أعـوذ بمـن حَـجَّ الحجـيج لـه ... والرافعـــون لــدين الله أركانـــا

إن اختلاف الناس في دينهم يَقُضُّ تفكير أبي بكر .

وغياب الحقيقة ـ في حين أن الناس في أشد الحاجة إليها ، واللهفة عليها ـ أمر يَأْسَى له أبو بكر مُنتهى الأسى ..

وإنه ليُجِيل بصره بين قومه ويتساءل :

أليس فينا مَنْ يجمعنا على الحقّ بعد أن يدلّنا عليه .. ؟

وفجأة يومض في خاطره ذلك المشهد الباهر الذي رآه من قُرابة أعوام خمسة ...

حين أتمّت قريش تجديد الكعبة، هَمُّوا ليعيدوا الحجر الأسود إلى مكانه ، فاشتجَرَ بينهم خلاف كاد يُغرق قريشاً كلها في الدم ، وكاد ينْشِب فيها حرباً أخرى كحرب الفِجار ..

وعاد المشهد كله يَزْحَمُ خواطر أبي بكر ..

فها هي ذي بطون قريش جميعاً، تتحول إلى شيَع مُتربِّصة ، تُقسم كل شِيعة ليكونَ لها دون سواها شرف رفع الحجر المقدس إلى مكانه .

وإذْ يحتدم الخلاف ويبلغ ذُروته ، فإن أُمية بن المغيرة ـ أكبر قريش يومئذٍ سنًّا ـ يُشير على الناس أن يُحكِّموا بينهم أول قادم .. ويرتضوا حكمه ، ويترقبون مَلِيًّا ، ويحتويهم صمت رهيب ، لا يُسمَعُ خلاله إلا صوت الدم في الأوردة والعروق .!!.

ويسترسل أبو بكر مع ذكرياته في حُبور ..

هاهم أولاء قابعون هناك ..

أشراف قريش ، والقبائل كلها ..

وقد سُمِّرتْ أبصارهم شَطر القادم الجديد .. أول مُقْبلٍ عليهم .. هذا الذي سيحسم مجيئه خلافهم ، ويَعصم دماءهم .

وفجأة يسمعون وقع خطوات ، كأنها نداء النجدة ..
وتضطرم الأنفاس ..
ويقترب القادم ..
يقترب المنقذ..
وإذا هو ـ "محمد الأمين" ..!!
ولا يكاد يبصرونه حتى يَصيحوا في غبطة :
هذا الأمين "محمد" ﷺ ، نِعم الحكَمُ هو ..
ويُتمتم أبو بكر ، والذكرياتُ تَبهر خاطره فيقول لنفسه :
أجل ، كان نِعْمَ الحكَم ، ونعم المَلاذُ .
فما كاد يسمع أسباب نزاعهم حتى قال لهم :
– هَلُمُّوا إليَّ ثوباً ..
فَجَاءُوهُ بثوب .. وضع الحجر في وسطه ثم نادى:
لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، فاستجابوا له حتى اقترب الحجَر من موضعه ، فأخذه محمد بيده فأرساه مكانه ..
وانتهت أسعدَ نهاية ، فتنةٌ كانت تنذر بشر وَبِيل ..!!!
وعاد أبو بكر يسأل نفسه :
رجل يردُّ إلى قريش نُهاها ، فيحسم الخلاف مرة أخرى ، ويُبيِّن للناس ما اختلفوا فيه من الحقَ ..
رجل يردُّ إلى قريش نُهاها ، وتمضي معه إلى عافيتها وهُداها ..
رجل يعطيهم من السلام ، واليقين ، والعقل ، مثلما أعطاهم "محمد" ﷺ يوم كاد خلافهم حول الحجر الأسود يُفنيهم في معركة مجنونة ..!!
واستجاشَتِ الذكرى السعيدة كل الابتهالات ، والنبوءات التي طالما سمعها من قس ، وزيد ، وورقة بن نوفل .. والتي كان يحفظها للسابقين من أمثال أمية بن أبي الصلت ، وعامر بن الظرب ، والمتلمِّس بن أمية ..
واقترب مشهد فريد ، ظل يقترب ويَكبُر حتى ملأ الشاشة كلها ..
مشهد قُسٍّ بن ساعدة ، وهو قائم بين الناس مُلَوِّحاً بذراعه المبسوطة في الأفق كأنها راية ، ويقول : يُقسم قُسٌّ بربه لَيبلغَنَّ الكتاب أجلَه ..
وودَّع أبو بكر موكب ذكرياته وهو يتمتم في يقين قائلاً :
– صدق ابن ساعدة ..
لَيبلُغنَّ الكتاب أجلَه .. !!

■ ■ ■

إن كان قال ، فقد صدق ..

وتمضي الأيام طاوية أشواق الذين يؤمنون أو يُحسّون أنهم على موعد مع الغيب عظيم . ويصبر أبو بكر حتى يأتي الله بأمره .

ويُقبل على شأنه وتجارته ، وإذْ يَحين أوانُ رحلة جديدة إلى الشام ، يشدُّ رحاله مع صَحْب له من التجار ، وتيممُ القافلة وجهها شطر البلاد البعيدة ساعية وراء الرزق والربح الحلال .

وفي الشام يجد أبو بكر "مُناخاً روحيًا" شبيهاً بمناخ قومه ..

أديان شتّى ، وناس تائهون ، وقِلّة مؤمنة تُقلِّب وجوهها في السماء راجية منها اليقين ، ومُرسلة أطرافها في آفاق الأرض ، وكأنها تريد أن ترى من أي أقطارها سَيُهلُّ النذير المنتظر ..

وأبو بكر في الشام مِثله في مكة ، لا يكاد ينجز عمله مع أهل مهنته من التجار حتى يُبادر ويُسارع إلى نَفرٍ من الأحبار والرهبان ، تعرَّف إليهم خلال رحلاته ، وأَنِسَ منهم عُزوفهم عمًّا عليه الناس من باطل ووهم ، ورَضِيَ منهم بحثَهُم عن الحقّ ، وانتظارهم لِبُشْرى الله المقبلة .

فَمِن هؤلاء في الشام ، كان يسمع نفس اللّحن العذب المبشر بمقدم رسول الله ﷺ ، والذي سمعه بمكة من ورقة بن نوفل وإخوانه ..

لقد أخذ هذه المرة يتردد على هذا النفر الصالح من رهبان الشام أكثر من أيّ مرة سالفة .

* * *

ولا بدّ من أن قلبه آنئذٍ كان يجيش أكثر من ذي قبل بمشاعر الحنين النامي إلى الفجر القريب .. إن أبا بكر لينتظرُ الرسول المقبل في لهفة غَلابة ، لا لأنه سيهتدي به وحده إلى الحقّ .. بل لأن الناس جميعاً سيهتدون به من ضَلالَة ، ويُفيقون به من غفلة .

أبو بكر الأوّاب ، المحبُّ الودود ، يود الحياة الصالحة لكل حَي .

وفؤاده الذكي ينطوي على رغبة غامرة في أن يُسدي إلى الناس الخير الذي يحتاجون إليه .. لا الخير الذي يملكه ..

وإنه إذ يملك المال والجاه ، فإنه ينفق منهما بغير حساب .

بَيْدَ أنَّ الناس لا يحتاجون إلى المال وحده ، ولا إلى الجاه معه .

إنّهم مع ذلك ، بل قبل ذلك ، يحتاجون إلى الهُدى والنور .

وهو لا يملك من الهُدى واليقين ما يقدِّمه للناس .. صحيح أنَّ معه مَكارمَ الأخلاق ، وأنه فيها وبها لَمَثَلٌ أعلى وقدوة سامقة .

لكنّ الهدى الأعظم لا يزال ينقصه ، وينقُصُ الناس .

التعرُّف إلى الحقيقة .. إلى السرِّ الأكبر الذي يحيط بالحياة، ويُحرِّك الكون .. وبكلمة واحدة ـ الله ..!!

فأين إلى الله الطريق ..؟؟

وتزدهر خواطره وتتألق ..

إن في الأرض كثيرين يتملَّكُهم ذات الحنين إلى معرفة الله الحقِّ .
في الشام ، وفي مكة ، وفي غيرهما من بلاد الله الواسعة .
كثيرون يؤرقهم الشوق إلى أن يعرفوا .
كثيرون تَهْوَى أفئدتهم مطالع الضوء ، منتظرين أن تُشرق عليهم فجأة كلمة الله .
أوَ يتخلى الله عن عباده هؤلاء..؟؟
أيتركهم حيارى تائهين وقد بسطوا إليه سبحانه رجاءهم ..!
أبداً ..
وإن الله لأرحَمُ من أن يغيب عن الذين يبتهلون إليه ليعرفوه .
سيجيء الهُدَى إذن ، لا محَالة ..
وسَيطلعُ على الناس في فجر قريب، مَنْ يقول لهم ـ صادقاً ـ ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ﴾ ..
ولكن من أين يا تُرى يجيء..؟!
إن الذين عندهم عِلم من الكتاب، في الشام وفي مكة، لَيكادون يُجمعون على أنه سَيهلُّ على الدنيا من هُناك .. من حيث رفع إبراهيم القواعد من البيت ..
من مكة .. وطن الكعبة العظيمة .!!
ولكنَّ مكة تموج بعبَدَةِ الأصنام .. بالعاكفين على الميْسر والأنصاب والأزْلام ، وكلُّ رجس من عَمل الشيطان ..
أفلا يجد الله في أرْضِهِ الواسعة سوى هؤلاء ليختار من بينهم رسوله ..؟؟
ولكنْ أيُّ بأس في هذا .. ؟؟
وهل يدخل الأطباء إلا بيوتَ المرضَى .. ؟!!
وحيث تَقضي الوثنية الضَّاريةُ على كل أمل في التوحيد ، ألا تكونُ الحكمة عظيمة في أن يَخرج من المكان نفسه مَنْ يرفع راية التوحيد .. ؟!
ثم إن في مكة قوماً على الرغم من وثنيتهم ، فإنهم يحملون تُراثاً أخْلاقِيًّا نادر المثال ..
* فمَنْ مثلهم يَحمي الذمار ، ويكرم الضيف ، وينصر المظلوم ، ويُعين على نوائب الدهر .. ؟؟
* مَن سِواهم من الأمم ، لهم أشهر حُرُم ، تتحول السيوف فيها إلى أغصان .. ؟؟
* مَن مثلهم يُوقدون النيران شاهقة عالية ، لتدلَّ الضيف وتُناديه ... ؟؟
* مَن مثلهم يقول السيد فيهم لعبده : « إن تجلبَنْ ضيفاً ، فأنت حُرٌّ » ... !
من أُوتِيَ من الحكمة ما أُوتوا .. ؟؟
هؤلاء الذين أنجبوا امرأ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني، وطَرفة بن العبد، وأمية بن أبي الصلت ، ولبيد بن ربيعة ، وكعب بن زهير ، وقس بن ساعدة ، وسَحبان وائل .. ؟؟

* * *

ويستطرد أبو بكر مع خواطره ..
وتتراءى له أبهى فضائل قومه ومزايا أمَّته ..

أهناك قوم وُهبوا من صدق الفِطرة ما وُهب العرب .. ؟؟

إنهم قومُ صِدق ، ولا مكان للزيف ولا للكذب في حياتهم وسلوكهم ..

صادقون في فضائلهم .. وصادقون في رذائلهم .. !!

إن حياتهم واضحة وُضوح الصحراء التي يقطنونها ، والسماء التي فوقهم ..

ومِن صدقهم هذا ، ووضوحهم ، جاءتهم الحكمة ، وقَدَروا على العِرافة ، وتعلَّموا لُغة الأشياء الصامتة في الحياة .. !!

وتتوالى الخواطر الرشيدة في وعي نَسَّابة العرب وحافظ حكمتها ، ويمضي كأنه يحدث نفسه :

هذا هو قُسُّ بن ساعدة .. هذا ورقة بن نوفل .. هذا زيد بن عمرو بن نفيل . ومِن قبلهم عشرات وعشرات عَمَّرتْ بهم الأجيال والسِّنون ـ كلهم استنكفوا عن عبادة الأوثان ، وشَقُّوا عصا الطاعة عن دين قومهم وما يعبدون ، وهتفوا بدين إبراهيم ، وتطلَّعوا إلى السماء ينتظرون كلمة الله ، وما منهم من أحدٍ إلا تمنَّى أن يكون النَّبِيُّ المنتظر .. ومع هذا لم يَدَّعِ النبوَّة منهم أحد .. !!

ولقد كان إيمانهم وطُهرهم وسلوكهم ..

وكانت ثقة الناس بهم مَدْعاة لتصديقهم لو ادَّعى أحدهم النبوّة وقال: إني رسول من عند الله .

كان الذين ينأوْنَ عن عبادة الأصنام سيسارعون إلى اتِّبَاعِهِمْ ، فلماذا لم يدَّعِ النبوَّة من هؤلاء أحد .. ؟!

لأنهم صادقون .. أجل .. إن أعظم مزايا قومنا ، الصدق والوضوح ..

وإن العربي ليستنكف أن يكذب على ناقته فيقول لها ، وقد هاجَها الظمأ الشديد :

أريـد أُمنّيـكِ الشـراب لتهـدئي ولكـنَّ عـارَ الكـاذبين يَحُـولُ

أفيخجل العربي العادي أن يكذب على ناقته .. ثم يكذب على الله أولئك الحُنفاء المتطهرون .. ؟ !!

نحن إذن أهل صدق عظيم ..

وهل يكون النبي إلا صادقاً ..

فلماذا لا تكون هذه النبوءات حقا .. النبوءات التي تكاد تجمع على أن النبي القادم سَيُهِلُّ على الناس من جوار الكعبة ، بيت الله العظيم .. ؟؟

* * *

كانت الخواطر تغدو وتروح على هذا النحو في وُجدان أبي بكر وعقله . والآن ، وقد أنجز أعماله في الشام فإنه يتهيأ للعودة إلى وطنه وبلاده . وقبيل رحيله بأيام قليلة يرى رؤيا :

يرى القمر قد غادر مكانه في الأفق الأعلى ، ونزل على مكة ، حيث تجزأ إلى قطع وأجزاء تفرَّقت على جميع منازل مكة ، وبيوتها . ثم تضامَّت هذه الأجزاء مرة أخرى ، وعاد القمر إلى كِيانه الأول ، واستقر في حجر أبي بكر .. !!

صَحا من نومه ، وللرؤيا على وعيه سلطان مبين .

وسارَع إلى أحد الرهبان المتَّقين الذين أَلِفَهم ، وعقد معهم من صلات الرُّوح ما كانت تَقَرُّ بِهِ عينه .

وقصَّ عليه الرؤيا ، فتهلَّل وجه الراهب الصالح وقال لأبي بكر :

لقد أهلَّت أيامه .. !!

ويتساءل أبو بكر :

مَن تعني .. ؟ النبي الذي ننتظر .. ؟؟

ويجيبه الراهب :

نعم ، وستؤمن معه ، وستكون أسعد الناس به .. !!

لم تكن رؤيا أبي بكر مُجرَّد حديث للنفس في منامها ، ولا مجرَّد تعبير عن أشواق مُسْتكِنَّة في لا شُعُورِهِ ..

بل كانت إرهاصاً بحقائق وطيدة راسخة أمْلَتْ على صاحبها يقيناً لا يتزعزع بحاجة الناس إلى رسول ، وبِحَتْمِيَّةِ مجيء هذا الرسول ..

وكانت رُؤياه هذه ، بُشْرى بين يَدَيْ يَقِينِه ، وتحيَّةَ الغيب لروحه المتطلعة وإيمانه المتلهف ..

وهو حين يختار الله محمداً ﷺ للرسالة ..

وحين يسارع أبو بكر إلى الإيمان به ومعه ، فلن يفعل لأنه رأى رؤيا .. بل لأنه رأى رؤية .. رؤية عقل ، ومنطق ، وبصيرة أتاحها له طول تَفكُّره ، وطول إصغائه للحكمة ، وأفاءها عليه ـ قبْلاً ـ سَبْقُ اصطفاء الله له ، وهدايته إياه .. !!

ومع الصَّباح شدَّ أبو بكر رحالَه مع القافلة العائدة إلى مكة ، كانت النُّوق والجمال تهرْوِل ، فَرِحةً مُنْتَشِيَةً كأنها في عيد ..

وهبَّت نسائم حُلوة تحمل إلى الرُّكب عِطْر بساتين الشام ، وكأنها تحيَّة الوداع تَنْثالُ وراءهم من البلد الطيب الذي غادروه من ساعات ..

وعزَفَ الحنين المستيقظ على أوتار القلوب المشتاقة فَغَرَّدتْ كل جارحةٍ في جسم ، وانطلق الركب يُسابق أشواقه ..

وارتفع صوتُ حَادٍ يُنْشِد :

سأقدح من قدري نصيباً لجارتي — أدينُ إذا تقسَّمت الأمور ؟؟
إذا أنت لم تُشْرك رفيقك في الذي — يكون قليلاً ، لم تُشاركْه في الفضل

ويُجيبه صادح آخر ، وكأنها مُباراة

أيا بْنَةَ عبد الله وابنة مالكٍ — ويا بنة ذي البردين والفرس الورد
إذا ما صَنعْتِ الزاد فالتمسي لهُ — أكيلاً لستُ آكِلَه وحدي
أخاً طارقاً ، أو جارَ بيت فإنني — أخاف مَذمَّاتِ الأحاديث من بعدي
وإني لَعبدُ الضيف ما دام ثاوياً — وما فِيَّ إلا تلكَ مِن شِيمَةِ العبد

* * *

ويُخرج هذا التغريد الحلو أبا بكر من صَمْت نفسه ، وتتألَّق أمامه من جديد فضائلُ

قومه .. هؤلاء الذين يَعُدُّون من مَذَمَّات الحياة ونقائصها أن يأكل الرجل وحده دون أن تَهبه الحظوظ الحسنة ضيفاً يأكل معه .. !!

وتتعالَى أناشيدُ الركب وتتبارى قصائده ..

وترتفع في السماء ذراع أبي بكر كأنها راية ، ويعلو صوته قائلاً :

ـ أيُّكم يُنشدنا قولَ أميَّة بن أبي الصَّلْت ؟

ويجيء صوت من طرف القافلة :

ـ أيَّ قوله تريد يا نسَّابَة العرب ، فإنَّ لأُمَيَّةَ قولاً كثيراً ؟؟

ويجيبه أبو بكر : ألا نَبيَّ لَنا ..

ويرتفع صوت الرجل مُنشداً قصيدة أُمَيَّة :

ألا نَبيَّ لنا مِنا فيخبرنا ... ما بعدَ غايتِنَا من رأس مَجْرانَا
فقد علِمْنا لوَ انَّ العلمَ يَنفعنا ... أنْ [سوف] يلحق أُخرانا بأُولانا
وقد عجبتُ وما بالموتِ من عجب ... ما بالُ أحيائنا يبكون موتانا

وتزداد الإبلُ هُياماً ، وتضطرم بالحُداء نَشوة ، فتقطع الأرض وَثْباً .. وتهتز أفئدة المسافرين غِبطةً وأملاً ..

ومن يُلق عينيه ساعتئذٍ على وجه أبي بكر المتألِّق تحت ضوء الحكمة ، يبصر دُموع الشوق تتحدَّر متألقة على وجنتيه كحبِّ الجُمان .. !!

ويستمر المنشد في إنشاده قصيدة أمية :

يا رب لا تجعَلَنِّي مُشْركاً أبداً ... واجعل سَريرة قلبي الدهْرَ إيمانا
إني أعوذ بمَنْ حَجَّ الحجيجُ له ... والرافعون لِدين الله أركانا
مُسْلمين إليه عند حجهمو ... لم يبتغوا بثواب الله أثمانا

وتمضي القافلة إلى غايتها ، تَبيتُ إذا دَثَّرَها الليل ، وتنطلق إذا ناداها الهجير ..

لقد مضى زمن طويل منذ غادروا مكة إلى الشام ..

تُرى ماذا جدَّ هناك من أمور .. ؟؟

ها هي ذي الأرض تُطوَى ..

الشام تَذهب بعيداً .. بعيداً ..

ومكة تُقبل حَثيثاً .. حثيثاً ..

وأخيراً .. تُطِلُّ مَشارف الوطن ، وعبير الأهْل ..

وهناك ، عند تلك المشارف كانت كوكبة من الناس تنتظر ...

لقد بَصُرُوا بالقافلة من فوق ذُرَا الجبل ، فتَنَادَوْا وتجمَّعُوا لاستقبالهَا ، وكلما اقتربت القافلة من المنتظرين أحسَّت منهم لَغطا كثيراً واضْطراباً .

تُرى ، ماذا حدث .. ؟!

والْتَقَى القادمون والمستقبلون في عِناق ومَودَّة ، تعالَت خلالَه الأصوات بالجديد

الغريب من الأنباء .

ألا تعلمون .. ؟ إن قريشاً منذ فارقتموها لا تنام الليل .. !!

ـ ويْحَ قريشٍ .. ولماذا .. !!

ـ إن محمداً وضع الجمْرَ على أنفها .. !!

ـ الجمر .. ؟ كيف .. ؟ ماذا جرى .. ؟!

ـ إنه يقول: إن الله أرسله لنعبده وحده ونذَرَ آلهتنا .. !!

وهَمس واحد ممن تَستهويهم الفُكاهة قائلاً :

ـ دَعْهُ يُحطمها ، فطالما زاحمتنا في أكل الثَّريد ، وشرب اللبن .. !!

واختلطت الأصوات في ضوضاء مثيرة ..

واقترب من أبي بكر بعضُ ذوي الأناة ، وأخذ يقصّ عليه النبأ في هدوء ، وأبو بكر يُغالب دموعه وحُبوره .. !!

ولَدَى مَدخل مكة قابلتهم جماعة صغيرة يتقدمها أبو جهل ـ عمرو بن هشام ـ .

وتعانقوا جميعاً ..

وبدأ أبو جهل الحديث :

ـ أَوَحَدَّثوك عن صاحبك يا عتيق ..؟

"وكان أبو بكر قبل إسلامه يُسمَّى عتيقاً" .

أجابه أبو بكر .

ـ تعني محمداً الأمين ..؟

قال أبو جهل :

ـ نعم ، أعني يتيم بَنِي عبد المُطَّلب .. !!

ودار حوار سريع بين الاثنين :

ـ أسمعت أنت ما يقول يا عمرو بن هشام .. ؟

ـ نعم ، سمعته ، وسمعه الناس جميعاً ..

ـ وماذا قال .. ؟

يقول إن في السماء إلهاً ، أرسله إلينا لنعبده ونَذَر ما كان يعبد آباؤنا .. !!

ـ أوَ قال إن الله أوحَى إليه .. ؟؟

ـ أجَل ..

ـ ألم يقل كيف كَلَّمَه ربه .. ؟؟

ـ قال : إن جبريل أتاه في غار حراء ..

وتألَّق وجه أبي بكر كأن الشمس قد اختصَّتْه آنئذٍ بكل ضيائها وَسَنَاهَا ، وقال في هدوء مُجلْجِل :

ـ إن كان قال ، فقد صَدَق .. !!!

ودارت الأرض بأبي جهل ، وتلَعثَمتْ خُطواته ، وكاد جسمه يتهاوى فوق ساقيه المهزولتَينْ ..

وتناقل الناس كلمة أبي بكر ، من واحد إلى آخر حتى صار لهم بها دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النحل .

وقصد أبو بكر داره ليرى أهله ، وينفض عنه وَعْثَاء السفر ، وبعدها يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

والآن ، لنترك "أبا بكر" قليلاً في داره وبين أهله ، حيث نعاود السير في موكبه بعد قليل لنلتقي به بين يَدَيْ رسول الله ﷺ .. ولنقض بعض الوقت مع كلمته الفذة الجامعة :

"إن كان قال فقد صدق" .. !!!

أجل .. فهذه العبارة الأمينة المضيئة ، هي التي سَتُشَكِّلُ وَفْقَهَا كل حياته المقبلة ، وستجعل من صاحبها أستاذاً للبشرية في فن الإيمان ..

انظروا ..

إن موضوع الرسالة لم يكن جديداً على أبي بكر ، فهو بكل ما معه من ذكاء ، وفطرة ، ومنطق ، قد قلّب كل وجوه النظر السديد في هذه القضية ، وانتهى إلى أنَّ الله لن يترك عباده حَيارَى ..

وهو بكل ما معه من ذكاء وفطرة ومنطق ، كان خبيراً بالرجال ..

ولقد عاش مع "محمد" ﷺ سنوات طوالاً ، ورأى فيه النموذج الحي للإنسان الكامل ..

وهكذا ، لم يكد يتلقى سمعُه النبأ العظيم ، حتى كان إيمانه الذكي مُهيَّأً ليأخذ دوره من فَوره ..

ولم تكن المشكلة بالنسبة إليه تتمثل في احتمال الصدق والكذب ، بل كانت تتمثل في هذا السؤال :

- هل صحيح أن محمداً قال هذا الذي يرويه الناس عنه .. ؟؟

- إن كان قال .. فقد صدق .. !!

من شاء فَلْيبحث ، ولْيفحص ، ولْيَتشكّك ، ولْينتظر ..

أما أبو بكر فلا .

وحَسْبُ محمد أن تنفرج شفتاه عن كلمة ..

حَسْبُه أن يُحرِّك لسانه بِقَوْل .. فإذا الصدق الذي ليس كمثله صدق . وإذا اليقين الذي لا يعلوه يقين .. !!

وهذه الثقة بكل عُرامِها [١] وتَفوّاها لم تُعطَ كما قلنا اعتباطاً .. إنما نُسجت عُراها الْوُثقَى من كل نُبوءة صادقة سمعها .. ومن كل منطق قويم اهتدى به ، ثم من خبرته التي لا تكذب ، بصدق محمد .. وعظمة محمد .. والحياة الطاهرة التي رأى محمداً ﷺ يحياها .

مُحمَّد ...

---

(١) العُرَامُ : الكثرة والشِّدّة ، ويقال : جيش عُرَامٌ ، وَعَرَمْرَمٌ ، أي : كثير شديد .

ما أطهر الاسم ، وما أعظم صاحبه .. !!

أربعون عاماً عاشها بين الناس قبل أن يجيء هذا اليوم الذي اختير فيه ليبلغ كلمة الله .

أربعون عاماً كاملة .

لم يخن خلالها أمانة ..

ولم يُزيف كلمة ..

لم يكذب قطّ ، ولو مازحاً .. !!

لم تأخذه عن الطهر نزوة ، ولا عن العظمة دَنِيَّة !!

لم يُرَ قطّ إلا عظيماً ، وكُفْؤاً لكل عظيم .. !!

مُذْ كان طفلاً يدعوه أترابه إلى مشاركتهم اللعب ، ومطارحتهم اللهو البريء ، فَيلوي عِطفه عنهم ويقول لهم :

"أنا لم أُخْلَق لهذا" .. !!!

حتى صار شابًّا ، فملأ شبابُه فِجاجَ مكة عَبيراً وطُهراً ، وصار اسمه تسبيحةً عَذْبَة على كل لسان .. !!

وما كانت قريش هازلة معه ، ولا مُجاملة له ، ولا مُتفضلةً عليه حين خلعَ عليه إجماعُها لقب "الأمين" .. !!

بل كانت بهذا ترفع من قدر نفسها ، وتُباهي مَن حولَها من قبائل العرب بهذا الذي ارتفع في سِنّه المبكرة إلى أعلى مستويات الأمانة .. لا أمانة المال وحده ، ولا أمانة الودائع وحدها .. بل الأمانة على كل ما في الحياة من قِيَمٍ ، ومُثُل ، وأشياء .

آلآنَ يَكْذِبُ محمد !! آلآنَ تتحول فجأة حياة قامت على الصدق المطلق إلى هذه الأكذوبة الضخمة .. ادّعاء الرسالة والكذب على الله .. ؟؟

محمد التوّاب ، الأوّاب .. الخاشع .. الضارع .. المُتَبتِّل الأمين ، الطاهر - يكذب على الله .. ؟!

أبداً .. أبداً .. أبداً ..

ومنذ متى ، كان من الحُنفاء العابدين في قومه مَن يكذب على الله .. ؟

وهل كان في ادّعاء الرسالة مَغنم يُزيّن للناس إتيانه ..؟! أوَلَمْ يَر "محمد" ﷺ بعينه ، كيف صرخَت قريش في وجه "زيد بن عمرو بن نُفيل" برغم شيخوخته المائلة للغروب ، برغم أنه لم يأتِها بدين جديد ، ولم يضع المعْوَل فوق آلهتها وأصنامها .. ؟

فكيف إذا جاءها رسول مثل "محمد" ﷺ ، يقول للناس :

- اتركوا الأصنام فإنها ضلال ، واعبدوا الله الحي القَيُّوم .. !

أهُناك مُخاطرة تُنذر بالهول كهذه المُخاطرة .. ؟!

وهل يختارها عاقل لِيتسلّى بها ويتبذّخ . ؟!

أم أنها رسالة فرضَتْ نفسها فَرْضاً على صاحبها ، وإيمانٌ حقٌّ ألقى عِبْأَه الذي لا يُقاوم على مُصطفاه .. ؟!

إن "محمداً" ﷺ أنضر مثال لكل ما يُنعم به الله من عافية في العقل ، وفي الخُلق ، وفي الضمير ..

وما طوَّفَتْ به ظِنَّة ذات يوم ..

وإن الحنفاء الحكماء ليبشرون من عهد بعيد بالنبي القادم .

وإن الناس حيثما يَمَّمَ أبو بكر وجهه ، لَتأخذُهم فاقةٌ شديدة إلى هادٍ ومعلم .. إلى رسول من عند الله يُبلغهم كلمته ، ويرفع وسط صفوفهم رايته ..

أَفَإِنْ جاء الرسول يُكفَر به .. ؟

ومحمد بالذات .. ؟؟

لا ...

« إن كان قال ، فقد صدق » .. !!

هكذا كان منطق الإيمان في وَعي الرجل الرشيد "أبي بكر" .

إنه لَيفرُكُ كفّيه في غبطة ، ويردِّد آخر مرة قول أمية بن أبي الصَّلْت :

ألا نبيٌّ لَنا مِنَّا فيخبرنا ...

أجلْ ، آخر مرة ..

فمنذ اللحظة التي سيلقى فيها محمداً ، لن يقول متمنياً :

"ألا نَبيٌّ لنا" .. فقد جاء النبيﷺ ، وجاءت الْبُشْرَى .

وسيكون شعاره ، ونشيده وهُتافه دَوْماً :

"إن كان قال ، فقد صدق" .. !!

سيقولها كلما جاء محمد بآية ..

سيقولها عند كل فتنة مُرْجِفَة ..

سيقولها عند كل هزيمة حالِكَة ..

سيقولها حتى يثيبه الله عليها ، فينعته بـ "ثاني اثنين" و "الصِّدِّيق" .

أما الآن ، فَلْنَعُدْ إليه ، ولْنصحَب خَطْوَه المبارك ، إذْ يأخذ طريقه إلى رسول الله لِنَشهد أول لقاء بين "الرسول"ﷺ و "الصِّدِّيق" .. !!

غادر "أبو بكر" داره إلى دار الرسول تسبقه أشواقه ..

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام مقيماً في داره مع زوجه "خديجة" رضي الله عنها .

خديجة .. التي كانت أول العالَمين إسلاماً معه وإيماناً به ...

ولطالما سمعت هي الأخرى من قريبها "ورقة بن نوفل" تَراتيل الحنين إلى النبي المُقبل ..

ولقد عرفت "محمداً" زميلاً لها في تجارتها ، ثم عرفته بَعْلاً وزوجاً ، فما رأت سلوكاً أطهر ، ولا قلباً أكبر ، ولا عقلاً أرجح ، ولا صدقاً أعظم مما رأت من محمد ..

من أجل هذا ، لم يكد الرسول ﷺ يحدثها عن النعمة التي أفاءها الله عليه بالوحي حتى قالت من كل يقينها : صدقت .. !!.

ولقد اختارها الله على علم لتكون شريكة رسوله في الحياة حين ينزل عليه الوحي بجلاله وأثقاله ، وهيبته ورهبته ..

وكان هنا مع الرسول وزوجته فتى ممشوق ، هو "عليّ بن أبي طالب" رضي الله عنه ..

كان الرسول ﷺ قد ضَمَّه من عهد بعيد حين نزلت بعمّه ضائقة ، وبقي معه ، فلمّا جاء الوحي سارع الفتى إلى الإيمان .

قَرَع أبو بكر الباب ، ونادى ..

وتألَّق بِشْرُ الحياة جميعه على مُحيًا الرسول ﷺ، وقال منادياً خديجة :

إنه "عتيق" يا خديجة ..

وسارع الرسول إلى لقاء صاحبه .

وجرى الحديث بينهما في مثل سرعة الضوء وصَفائه ..

قال أبو بكر :

ـ أصحيح ما أنبأني به القوم يا أخا العرب .. ؟

أجاب الرسول سائلاً :

ـ وماذا أنْبَئُوك ..

ـ قالوا : إن الله أرسلك إلينا لنعبده ، ولا نشرك به شيئاً ..

ـ وماذا كان جوابك لهم يا عتيق ..

ـ قلت لهم : إن كان قال ، فقد صدق .. !!

وفاضت عينا الرسول ﷺ من الدمع غِبطة وشكراً .

وعانق صاحبه وقبّل جبينه . ومضى يحدثه كيف جاءه الوحي في غار حراء قائلاً له:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ...

وخفض أبو بكر رأسه في خشوع وتقوى ، تحيَّةً لراية الله التي رآها ترتفع أمامه إلى أعلى السَّارية ، متمثلة في هذه الآيات المنزلة .. !!

ثم رفع رأسه ، وشدَّ بكلتا يديه على يمين رسول الله ﷺ وقال : أشهد أنك صادق أمين ..

أشهد أن لا إله إلا الله .. وأشهد أنك رسول الله .. !!

* * *

وآنئذٍ كان الغيب يُجْرِي أعظم عملية تفجير تاريخي ..

كان كل ما للإسلام من مستقبل وحضارة واتساع ، يُغادر تلك اللحظة ويأخذ كل شيء مكانه على أرض الغد الطويل ..

أجل ، آنئذٍ ، وفي تلك اللحظة التي شهدت يَداً تُصافح ، وقلباً يُبايع ، كانت نفس هذه اللحظة ، تتفجّر وتُخرج خَبْأَهَا المهُول .. !!

كانت تَلِد زماناً بأسْرِه .. بأجياله .. بمعجزاته وانتصاراته ..

ولم يسمع أحد يومئذٍ دَوِيَّ هذا التفجُّر .. حتى الرسول وصاحبه ؛ لأن صوت اليقين في قلبيهما كان أعلى من كل صوت عداه .. !!

* * *

هكذا أسلم أبو بكر في هدوء ، ويقين ، وقوة ..

وسيظل حاملاً رايته في هدوء ، ويقين ، وقوة ..

أسلَمَ الرجل الذي اصطفاه الله ليكون لرسوله الصدِّيق ، وثانِيَ اثنين ، وغداً يكون الخليفة .

أسلم الرجل الذي وإن لم يكن نبيًّا ، فإنه سَيُكَمِّل دَوْرَ النبي ...

وفي زيارته التالية لرسول الله ﷺ لم يكن وحده .. بل كان معه وفي صحبته خمسة من أشراف قريش ، أقنعهم أبو بكر بالإسلام ، فجَاءوا يبايعون الرسول ﷺ .. أولئك هم : عثمان بن عفان ، والزُّبَيْر بن العوَّام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقَّاص ، وطلحة بن عبيد الله ..

أجَل - هؤلاء الخمسة الأعلام ، مرة واحدة .

وكانت هذه أولى بركات أبي بكر ..

فعمَّا قليل تنمو صُفوف المقبلين على الإسلام .

وسيُقبل الناس بعضُهم على بعض قائلين :

- "محمد" و "أبو بكر" .. ؟!

والله لا يجتمع مثلهما على ضَلالَةٍ أبداً ..

آمن أبو بكر إذن .. فمن أيِّ طراز كان إيمانه .. ؟؟

إن عظمة هذا الرجل مَاثِلة في إيمانه .. مَاثِلَةٌ في أنه مَارَسَ فوق أرض البشر وفي دنيا الناس نوعاً من الإيمان جِدُّ عجيب .. !!

إيمان مُحيِّر !!

سَهلٌ إلى أصعب مَدًى ..

كالذَّرَّة لا تكاد تُرى ..

وَكَالذَّرةِ ، تنطوي على أعظم طاقة مُذهلة .. !!

إن إيمان أبي بكر ، كالنسمات الوديعة الرَّقْراقة ، نَنْشَقُها دون أن نُحِسَّها ، ودون أن تُثير فينا الانتباه ، ولكن حين تعرض لأحد أزْمة اختناق ندرك أن هذا الشيء الذي كان عاديًّا ، هو سِرُّ الحياة ! وكل الحياة .. !!

كذلك سيعيش أبو بكر بإيمانه بين الناس هادئاً وديعاً .

ولكن حين تُلِمُّ بالإسلام أزمة ، يتبين الناس فجأة ، وعلى صورة نادرة باهرة ، أيَّ طاقة جبَّارة شامخة ، تستقر تحت جوانح هذا الوديع الرِّقْراق .. !!

ساعتئذ يدرك المسلمون أن الأنفاس الهادئة التي كانت تتردّد بين صفوفهم ، هي رُوح الحياة ، وأنَّ الإيمان الْحَيَّ الذي يحمله هذا الرجل في هدوء ، إنما هو قَدَرٌ هائل لا تصمُد أمامه عقَبة ، ولا مستحيل ..

لقد تحدث الرسول ﷺ فيما بعد كثيراً عن أبي بكر ..

وكان مما قال عنه :

« ما لأحد عندنا يد ، إلا وقد كافأناه بها ، ما خلا أبا بكر ، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة .. » .

« وما نفعني مالُ أحد قط ، مثلما نفعني مالُ أبي بكر .. » .

« وما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له كَبْوَةٌ عدا أبي بكر ، فإنه لم يتلَعْثَم » .. !!

هذا أصدق وصف وأزكاه لإيمان أبي بكر ..

إنه الإيمان الذي لم يتلعثم قطُّ .

*لم يتلعثم عند السانحة الأولى ، بل كان كأنه على موعد مع الدِّين الجديد ، فسارع إليه مُسارعَةَ الظامئ المُشْتاق .. !!

*ولم يتلعثَم عندما انتفض أهل الرِّدَّة ضد الإسلام ، وهَمُّوا به إثْرَ وفاة الرسول ﷺ ، بل ازداد هذا الإيمان في قَلْبِ المِحنة ثباتاً ورُسوخاً ، وتألقا وتفوُّقاً .

وعرف واجبه من فَوره ، ثم باشَر هذا الواجب على أكمل وجه وأتَمِّه ..

* ولم يتلعثم فيما بين ذَيْنِكَ من مَواقف امْتُحِنَ فيها إيمان المؤمنين امتحاناً رهيباً ، فلم يكنْ ثَمَّةَ أرسخ ولا أقوى من إيمان أبي بكر ..

ولنشاهد الآن بعضاً من مواقف ذلك الإيمان الفريد بالله ، وبرسوله ، وبدينه .

* * *

في ضُحى يوم من الأيام اجتاح أهل مكة جميعاً حديث أثار كل ما في أنفسهم من دهشة وعجب .

فقد كان أبو جهل ذاهباً لبعض شأنه حين مَرَّ بالكعبة فأبصر رسولَ الله ﷺ جالساً وحده في المسجد الحرام ، صامتاً مفكراً ..

وأراد أبو جهل أن يُؤذِيَ الرسول ببعض سُخرياته . فاقترب منه وسأله :

ـ أوَلَمْ يأتِك الليلة شيء جديد .. ؟!

فرفع الرسول ﷺ رأسه نحوه وأجاب في جدّ :

ـ نعم ، أُسْرِيَ بي الليلة إلى بيت المقدس بالشام .

فقال أبو جهل مستنكراً :

ـ وأصبحتَ بين أظهُرنا .. ؟؟

قال عليه الصلاة والسلام : نعم ..

وهنا صاحَ أبو جهل في جنون :

- يا بني كعب بن لُؤَيّ ، هَلُمُّوا .. !!

وأقبلت قريش ، ينادي بعضها بعضاً ..

ولم يكن الرسول ﷺ قد حدَّث أحداً من أصحابه المؤمنين بنبأ الإسراء بعد ..

تجمَّع الناس عند الكعبة ، ومضى أبو جهل يحدِّثهم في حُبور بما سمع ، فقد ظنَّها الفرصة المُوَاتية التي عندها سينفضُّ عن الرسول كل مَن آمن به .

وتقدَّم واحد من المسلمين ، وسأل الرسول ﷺ:

- أحقاً أُسْرِيَ بك الليلة يا رسول الله . ؟

فأجاب الرسول :

- نعم ، وصلَّيت بإخواني الأنبياء هناك ..

وسرَى في الجمع المحتشد خليط متنافر من المشاعر المهتاجة .

ورحَّب المشركون بما سمعوا ، ظانِّين أن في هذا النبأ نهايَةَ الرسول ﷺ..

واحْتوَشَتِ الشكوك فريقاً من المسلمين .

وسعَى بعض رجالات قريش إلى بيت أبي بكر فَرِحين شامتين ، لا يُخالجهم ريب في أنهم سيعودون ومعهم رِدَّته عن هذا الدين .. !!

فأبو بكر يعرف أكثر من غيره ، ما يحتاجه قطع المسافة بين مكة والشام من سفر مُضْنٍ وزمان طويل ..

فكيف بالذي راح ، ورجع ، وصلَّى هناك .. كل ذلك في بضع ساعات !!

بَلَغوا دار أبي بكر ، وصاحوا به :

- يا عتيق .. كُلُّ أمر صاحبك قبل اليوم كان أَمَماً - يعني هيِّناً ومُحْتَمَلاً - أما الآن فاخرج لِتَسمع ..

وبزَغَ عليهم أبو بكر دَهِشاً تُجَمِّله سكينته ووقاره ، وسألهم : ماذا وراءكم .. ؟

قالوا : صاحبك !

وانتفض أبو بكر وقال :

- وَيْحَكم .. هل أصابه سوء .. ؟!

وتراجع القوم قليلاً ، وازْدَرَدَ كُلٌّ منهم ريقَه في مشقَّة ، وقال قائلهم :

- إنه هناك عند الكعبة ، يُحَدِّث الناس أن ربه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ..

وتقدَّم آخر يكمل الحديث ساخراً ، وقال :

- ذهب ليلاً ، وعاد ليلاً ، وأصبح بين أظهُرنا ..

فأجابهم أبو بكر ، وقد تهلَّل مُحيَّاه :

- « أيُّ بأس في هذا ؟ إني لأُصدقُه فيما هو أبعد من ذلك ..

أُصدِّقُه في خبر السماء يأتيه في غَدوة أو رَوْحَة .. » .
ثم أطلق عبارته الصامدة .
« إن كان قال ؛ فقد صدق » .. !!!
أهناك كلمات تستطيع النهوض إلى مستوى الإشادة بهذا الموقف أو التعليق عليه دون أن يَغلبها الحياء والعجز على أمرها .. ؟؟
عبارة واحدة تستطيع المناسبة أن تسْعفنا بها ، هي :
يا واهِبَ هذا اليقين سبحانك .. !!!
هذا رجل لم يُؤمن إيمان المصادقة ، بل آمن إيمان الفِطنة ..
لم يؤمن بعواطفه ، بل آمن بذكائه ..
لم يدفعه إلى الإيمان منطق القلب وحده .. بل منطق العقل قبله ..
انظروا إلى قوله :
« إني لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك .. أصدقه في خبر السماء يأتيه في غدوة أو رَوْحَة » .
أجل .. أفلا يُصَدِّقه إذا قطع بضعة أميال في ليلة واحدة .. ؟!
إن الله الذي آمن به أبو بكر لا مُنتهى لقدرته ..
والرسول الذي آمن به أبو بكر لا شك في صدقه ..
وما أكثر الظواهر التي نراها ونُحِسُّها ويعجز العقل عن تفسيرها . !
فلتكن هذه واحدة منها .
الذي يعنيه أن يكون الرسول ﷺ قد أخبَر وقال ، وعندئذٍ يكون كل شيء ممكناً وصادقاً .. !!
إذا كان وَافِدُ السماء وسَفِيرها ، يغدو ويروح بين السماء والأرض في لحظة مُلقياً القرآن على قلب النبي ليكون من المُنذِرين ..
وإذا كان أبو بكر قد آمن بهذا ، ففيم يشكُّ بعد هذا .. ؟
في سفر الرسول ﷺ إلى بيت المقدس وأَوْبَتِه منه في ليلة واحدة ؟
وأيُّ بأس في هذا ؟
إن الزمان والمكان ..
وإن البُعد والقرب ..
كل أولئك أمور تتعلق بقدرة الناس .
أما الله الذي يقول للشيء : كن ـ فيكون ، فما الزمان والمكان أمام قدرته .. ؟؟
ما الأبْعاد والآماد أمام مشيئته .. ؟؟
ليست المشكلة إذن : كيف ذهب الرسول ﷺ إلى بيت المقدس وعاد منه في ليلة ..
ولكن المسألة هي : هل قال محمد ذلك .. ؟
« إن كان قال ، فقد صدق » .. !!!
وَهَرْوَلَ أبو بكر إلى الكعبة حيث رسول الله ﷺ .

وعند الكعبة رأى الجمع الشامتَ المُرْتاب ، مُتحلِّقين لاغِطِين .

ورأى نور الله هناك في جلسته الخاشعة الضارعة مستقبلاً الكعبة ، لا يُحسُّ من اللَّغَط الدائر حوله شيئاً ، ولا يسمع للحمقى رِكْزاً .

وانطرح أبو بكر عليه يعانقه ويقول :

ـ بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله .. والله إنك لصادق ، والله إنك لصادق !!

* * *

ومشهد آخر من مشاهد هذا الإيمان الفريد يتجلّى خلاله تهلُّل هذا الإيمان للتضحية والبذل .

فذات يوم ، وأبو بكر في داره سَعِد بزيارة رسول الله له ، وفوجئ بالرسول يقول له :

ـ يا أبا بكر ، إن الله أذِن لي بالهجرة ..

كان أصحاب النبي عليه السلام ، قد سبقوه إلى المدينة مهاجرين ، وبقي الرسول ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن الله له ، وبقي أبو بكر بجانبه ..

والآن وهو يسمع النبأ يكاد قلبه يطير من الفَرح ويقول : الصُّحْبَةَ يا رسول الله .

فيجيبه الرسول ﷺ : الصحبة يا أبا بكر ..

إن الهجرة في حد ذاتها رحلةُ عافية ؛ فهي اطِّراحُ لأذى قريش ولمؤامراتها التي لا تُؤذِنُ بانتهاء .

ولقد هاجر المسلمون إلى المدينة بإذن من الرسول ﷺ ، وإنهم بالهجرة لَسُعَداء ، فقد أراحتْهم من سَفَهِ قومهم ،وإن يَكُ لِفراق الأهل والوطن مرارة وغُصَّة ..

ولكن الهجرة بالنسبة للرسول بخاصّة ، مخاطرة ، ما مثلها مخاطرة ..

فإن قريشاً إذا كانت قد تركت المسلمين يغادرون مكة في سلام ، فما هي أبداً بتاركة رسول الله .

ولقد تحدَّث زعماؤها في هذا كثيراً ، وانتهَوْا إلى أنهم إذا تركوا الرسول ﷺ يخرج إلى المدينة ، ويرفع في سمائها رايته ، فلسوف يجمع العرب حوله ثم يغزو بهم قريشاً ..

ومن ثَمَّ قرروا أن يظفروا برأس الرسول ..

ولعلَّهم إنما تركوا المسلمين ومعهم عمر بن الخطاب ـ وعمر "بصفة خاصة" ـ نقول : لعلَّهم تركوهم يهاجرون ليبقى الرسول بينهم بلا أنصار حتى يتأتَّى لهم الخلاص من أمره بسهولة .. !!

إذن فهجرة الرسول ﷺ ليست نزهة ، ولا مجرَّد هجرة ، إنما هي مخاطرة مَهُولة . ومطاردة فادحة ..

وأبو بكر يعرف هذا جيداً ، ويعلم أن قريشاً ستملأ السَّهْل والجبل بِفُرسانها ومُقتفي الخطى والآثار فيها حتى تظفر بالنبي المهاجر .

فما باله يتهلَّل لهذه الصحبة ، ويحرص عليها ، ويطير قلبه فرحاً بها .. ؟

إنه الإيمان .. !!

إيمانه ـ أولاً ـ بأن الله لم يُلْقِ بكلمته إلى الناس وفي مشيئته أن يتركها لقريش تَذْروها مع الريح من أول صيحة ..

وإيمانه ـ ثانياً ـ بأن الإيمان مسئولية وتضحية ، ولقد أصبح مسئولاً عن هذا الدين منذ تَبِعَه ، وعن هذا الرسول منذ بايَعه ..

ومهما تكن العواقب إذن ، فلن يكون ثَمَّةَ سوى طريق واحد لا يعرف أبو بكر سواه .. ذلكم هو طريق الواجب الذي يحدده إيمانه ، وطريق التضحية التي يتطلبها هذا الإيمان .

لقد آمن بالله ، وبرسوله ، وبدينه .

ومهمته بعد ، تتلخَّص في أن يجعل من حياته كلها سياجاً يحمي به الدعوة والداعي . الدين والرسول ﷺ ..

وحين يُوَفَّق في مهمته هذه ، فتلك عنده هي الحظوظ الوافية التي يرجوها ، وينتشي حُبوراً بها ، ويُحسّ كلما تزايدت أهوالها وأخطارها ،أنه أعظم أهل الأرض حظا ، وأوفأهم سعادة وغُنماً .. !!

ومن هنا كانت غبطته الفائقة حين رأى نفسه زميلاً للرسول ﷺ في هجرته . ولقد أجزل الله له المَثُوبَةَ والمكافأة .

وكانت المثوبة مزيداً من الإيمان ، ملأ الله به قلبه في ضوء تجربة من أروع التجارب .

فحين أوَى مع الرسول إلى الغار ليختفيا فيه من قوى المطارَدَة التي كانت تلهث وراءهما طمعاً في نَيْلِ الجائزة المغرية التي أهْدَتْها قريش لمن يأتيها بالرسول عليه السلام .

حين أوَيَا إلى الغار معاً ـ الرسول ﷺ ، والصدّيق ، واقترب المُطارِدُون من الغار ، وراحوا يُطَوِّفُون حوله ـ وفَزِع أبو بكر تحت هول السؤال الذي أخذَ يُلِحُّ عليه :

ـ ماذا لو نظر أحدهم إلى جوف الغار .. ؟

ـ ماذا لو ظفر المجرمون برسول الله .. ؟ .

حينئذ كان الله يدّخر للصدّيق الدرس الأخير الذي سيكمّل إيمانه ، ويبلغ به أعلى مُستويات الإيمان المتاحة لبشر ..

فلقد ألْقى على الرسول سؤاله :

ـ يا رسول الله ، لو نظر أحدهم إلينا لرآنا ..

قال هذا وعيناه تتجهان إلى رسول الله ﷺ في حياء وقَلَق .

ولم يكَدْ بصره يلتقي بمُحيّا الرسول حتى رأى عجباً .. رأى وجهاً مُتَهلّلاً كأنما أُلْقِيَتْ عليه آنئذ كل ما في الحياة من سَكِينة ، وطُمأنينة ، وأمَل ..

ورأى راحةَ الرسول تلامِسُ صدره ، فكأنما تَسْكُبُ فيه الطمأنينةَ سَكْباً .. !!

وقال له الرسول ﷺ :

ـ يا أبا بكر ـ لا تحزن ، إن الله معنا .

ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما .. ؟!!

وسكَن أبو بكر ، ورأى المطاردين يُطَوِّفون بالغار في خَبال ، ثم يرتدُّون عنده حيارَى وعُمياناً ، لم ينالوا شيئاً .. !!

تَمَّ له يومئذٍ إيمانُه ، واستوى على عَرش اليقين يقينُه .

وكأنما اختارته الأقدار لصحبة الرسول ﷺ في الهجرة لِتُرِيَه هذا المشهد .

بل لَكأنما أراد القدر هذا المشهد وهيَّأه ، ليبلغ أبو بكر من عِظَته البالغة كل ما تبقَّى له من حُظوظ إيمانه ؛ جزاءً وِفاقاً ، وكأساً دِهاقاً ، لن يظمأ أبو بكر بعدها أبداً إلى إيمان ويقين .. لقد بلَغ إيمانه الذروة في لَحظَة الغار .. !

* * *

ولْنتابع سيرنا وراء هذا الإيمان الفذّ لِنرى جلاله المهيب في مَشْهدٍ تِلْوَ مَشْهد ..

في السنة الخامسة من الهجرة ، وفي شهر ذي القِعْدة ، غادر الرسول ﷺ المدينة ، ومعه عدد كبير من المسلمين ، قاصدين مكة لِيعْتمِروا .. وساق الهَدْيَ أمامه لتعلم قريش أن الرسول جاء زائراً للبيت الحرام ، ولم يأت مُقاتلاً .

بَيْدَ أنَّ نبأ هذه الزيارة ، كان قد سَبَق إلى قريش بطريقة مَّا فحشدت جُمُوعها ، وصمَّمت على منع الرسول ﷺ وصحبه من دخول مكة وزيارة الكعبة .

ونزل الرسول وأصحابه عند مهبَط الحُدَيْبِية .

وأوفد إلى قريش "عثمان بن عفان" ليشرح لها سَببَ مجيئه ..

وأوفدت قريش "سُهَيل بن عمرو" ليُفاوض الرسول في الأمر .

وانتهت المفاوَضة إلى عقد ميثاق ، يعود المسلمون بمقتضاه إلى المدينة مُرجِئِين زيارة البيت إلى العام القادم ، كما يتضمَّن الميثاق التزام المسلمين بأن يردُّوا إلى قريش من يأتيهم مُسْلماً ، ولا تردُّ قريش إلى المسلمين من يعود إليها مُرتداً .

ولم يَكد الكاتب ينتهي من كتابة الميثاق، ولم يَمهَرْه الرسول ﷺ بخاتم النبوَّة بعد، حتى فوجئ المسلمون بفتى يأتيهم صارخاً مستغيثاً ، يرسفُ في قيوده ، ويجرجر أغلاله المُثبتَة في حجارة غليظة كي تُعوقَه عن المسير .. !!

كان هذا الفتى "أبا جندل" وهو ابن "سهيل بن عمرو" مندوب قريش .. هذا الذي يتفاوض مع رسول الله ﷺ.

وفاض قلب الرسول من الأسَى لمنظر أبي جندل الذي ارتفع جُؤارُه مستغيثاً برسول الله .

وقال الرسول ﷺ لسهيل :

ـ اترك لنا "جندلاً" فإنَّا لم نُنجز العهد بعد ..

وما كان لسهيل أن يترك ولده يذهب إلى الإسلام ، وهو واحد من زعماء قريش ، فأصرَّ على تسليمه ، أو ينقض العهد كله .. وتكون الحرب .

وصاح أبو جندل :

ـ يا معشر المسلمين ، أتتركونني أُرَدّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً .. ؟

ـ ألا تُبصرون ما على جسدي من عذابٍ في الله .. ؟

وناداه الرسول ﷺ بكلمات آسية :

ـ اصبر .. وسيجعل الله لك مَخرجاً ..

كان هذا المشهد أدهى وأكبر من أن تحتمله أعصاب المسلمين ..

فكيف يرجعون دون أن يزوروا البيت الحرام .. ؟

وكيف يُسْلِمون للعذاب مُسلماً جاء يستصرخ بهم ويستغيث .. ؟

ويُصوِّر لنا احتدامَ القلق الرهيبِ في أنفسهم موقفُ واحدٍ من أعظمهم إيماناً ، وتفانياً ، وطاعة .. هو "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه ..

لقد ذهب إلى الرسول ﷺ يسأله ، ويُناقشه ..

ـ يا نبي الله ، ألست نَبِيَّ الله حقا .. ؟

وأجابه الرسول ﷺ :

ـ بلى ، يا عمر ..

قال : فَلِمَ نُعْطَ الدَّنِيَّة في ديننا .. ؟

أجابه الرسول ﷺ :

ـ يا عمر ، إني رسول الله ، ولستُ أعصيه ، وهو ناصري ..

قال عمر :

ـ أوَلَم تَعِدْنا ـ يا رسول الله ـ بأننا سنأتي البيت ونطوف به . ؟؟

قال الرسول ﷺ : أوَقُلْتُ هذا العام ، يا عمر . ؟؟

قال عمر : لا ..

قال النبي ﷺ : فإنك آتيه ومُطَوِّف به .

إن هذا الحوار يكشف عن حِدَّة الأزمة التي عاناها المسلمون يومئذٍ .. ولكنْ ما شأن أبي بكر بهذا كله .. ؟؟

إن "أبا بكر" ، هو أستاذ فَن الإيمان في ذلك اليوم العصيب ، كما سيظل أستاذه في كل حين .. ولنمضِ وراء "عمر" ، فبعد لحظات سنلتقي معه عند "مِنَصَّة الأستاذية" حيث يتربَّع فوقها هذا المعلِّم الكبير أبو بكر الصديق !!

ينصرف عمر .. من بين يَدَيْ رسول الله ، وهو لا يزال يُعاني مشاعره القَلِقَة ..

ولقد ردَّه الأدب مع الرسول ﷺ عن الاسترسال في المُناقشة والإلحاح في السؤال .

بَيْدَ أنه يُحسُّ في نفسه حاجة إلى مزيدٍ من الوضوح .

فمع من يتحدث .. ؟؟

لا أحد سوى أبي بكر .

ومضى يجتاز صفوف المسلمين وحلقاتهم حتى لمحه هناك ، في أقصى الجمْع ، تغمره طمأنينة عجيبة .. !

ألْقى عليه الأسئلة ذاتها التي ألقاها على رسول الله ﷺ منذ لحظات .

وتَلقّى من أبي بكر الإجابات ذاتها التي سمعها من رسول الله .

وانتهى الحوار بينهما ..

يقول عمر :

ـ "فأخذ أبو بكر بيدي ، وجذبها في قوة ، وقال لي :

« أيها الرجل ، إنه رسول الله ، ولن يعصيه ، وإن الله ناصره ، فاستمسك بغَرْزه[1] ، فوالله إنه على حق ...

« فأنزل الله السَّكِينَة على قلبي وعلمتُ أنه الحقّ » .

هذا هو إيمان أبي بكر الذي لا يتلعثم ، ولا يبحث عن نفسه أبداً ..

الإيمان الذي لا تأخذه سِنَةٌ ، ولا تَتقحَّمه خَلْجةُ شك في سِرٍّ أو عَلَن .. !

وفي ساعات العُسْرة ، وخلال الأزمان العُظْمى ، كان إيمان هذا المؤمن يُخرج خَبْأه الباهر ، فيملأ الزمان والمكان والأنفسَ رَوْعة .. !!!

* * *

والآن لنشهدهُ يوم "بَدْر" وقد نزلت قريش بجيشها اللَّجِب عند العُدوَة القُصْوَى من الوادي ، مُسَلَّحة بكبريائها وبأسها .

وخرج المسلمون مع رسول الله ﷺ وعِدَّتُهم يومئذٍ ثلاثمائة لا يملكون من سلاح المقاومة إلا نَزْراً يسيراً .

ويلتقي الجمعان ، وتتلظّى أرض المعركة فجأة ..

ورسول الله جالس في عريشِه ، حيث توسَّل إليه أصحابه ألا يُغادر خيمته مهما تَدُرْ رحَى الحرب ، وأبو بكر معه ..

بصُرَ الرسول ﷺ بالمعركة المُحتدمة الحافلة ، ورأى أصحابه وهم قليلون ، يكادون يذوبون وسط الخِضَمِّ الوثني المجنون . !

وكلما رأى شهيداً يسقط ، طار معه قلبه حناناً وأسًى ..

وبلغ القتال ذروته الفاصلة ، ولم يعد يُسمع إلا صليل سيوف متوهجة تَعزِف لحن الموت والدم . وأحسَّ الرسول ﷺ أن كل مُقدَّرات الدين قد صارت في الكِفّة المرجوحة، لا الكِفّة الراجحة .

وخرج من خيمته باسطاً إلى السماء ذراعَيْه ، مِثل شِراعَيْ سفينة دهمهما موج عنيد عتيد .. !!

وراح يُناجي ربه في ابتهالات عالية :

« اللهم إنْ تَهْلِكْ هذه العصابة من أهل الإسلام ، فلَن تُعبد في الأرض .. »

« اللهم أنجزْ لي ما وَعدْتني ... » .

---

(١) أي : بِأَمْرِه وَنَهْيِه .

وتوالت ابتهالاته .. وبُحّت نبراتُه .. وتَهَدْجَتْ دعواته ، وسقط رداؤه من فوق مَنكِبه ..

وهنا ... اقترب أبو بكر في هدوء فرفع رداء الرسول ﷺ وأعاده إلى مكانه فوق المنكبين اللتين كانتا آنئذٍ تحملان أعظم أعباء الحياة ..

وفي كلمات مُتوسِّلَة ، قال أبو بكر :

ـ « يا رسول الله ، كفاكَ مُناشدَتَكَ ربَّك ، فإنه سيُنْجِزُ لك ما وَعدك » .

لم يكن الرسول في شك من نصر الله .. فقُبيل المعركة قال لأصحابه :

ـ « إن الله وعدني النصر .. » .

وقال لهم : « لَكأني أرى مَصارع القوم .. » !!!

لكنَّ مسئولياته المباشرة عن أصحابه وعن الدين الذي يُواجه أول معركة مع خصومه ، عكست على مشاعره حماسَ المعركة وقلَقها .

* * *

ومَن شاء أن يرى إيمان أبي بكر في أحفل ساعاته ..

مَنْ شاء أن يرى الإيمانَ العُلْويَّ الموصولَ بِقيُّوم السموات والأرض ..

فلْيَر هذا الإيمان يوم دُعِيَ الرسول إلى الرفيق الأعلى ، فأجاب ورَحَلَ عن الحياة والأحياء ..

يوم تَلفَّت المسلمون فجأة ، فلم يَرَوْا بينهم "الأب" الذي كان يملأ حياتهم حناناً ، و"النور" الذي كان يملأ وجودهم ضياء ..

يومئذ تكشَّف جوهر هذا الإيمان .

إيمانُ رجل إلهي ، أعطى الله مَوْثقَه مع محمد ، فإذا اختفى "محمد" ﷺ بالموت، فإن هذا الإيمان لا يَضعُف ، بل يتفوَّق .. ولا يَجزع ، بل يَحتشِد .. ولا يَنُوء تحت وقع الضَّربة ، بل ينهض أيِّداً رشيداً ثابتاً ، ليحمل مسئولياته وتبعاته .. !!

وهكذا وقف "أبو بكر" ـ أو بتعبير أحْجَى ـ وقف "إيمان" أبي بكر يوم وفاة الرسول وقفة ما كان يقدر عليها سواه .. !!

يومئذ ، وبعد أن صلَّى بالمسلمين ، عاد الرسول في حجرته ، واستأذنه في أن يغيب عنه بعض الوقت ، وذهب إلى داره بالعالية في أقصى المدينة .

ومضى وقت ليس بالطويل قضى فيه بعض حاجات أهله .

وإذا هو يتهيأ للعودة إلى رسول الله ﷺ إذا النَّاعي يَقطع الأرض إليه وَثْباً ، ويُلقي عليه النبأ الذي يهدّ الجبال .

حَمِد واسْترجع ، واختلطت دموعه الهاطلة بكلماته وهو يقول : « إنَّا لله ، وإنا إليهِ راجعون » .

وأغذَّ السير[1] رابط الجأش ، قويَّ الجَلَد إلى بيت رسول الله ﷺ .

---

(١) أغذَّ السيرَ : أسرعَ فيه .

لم يكد يقترب من المسجد حتى رأى الفاجعة الكبرى .. لقد فقدَ المسلمون صوابهم .. !!!
حتى ابن الخطاب القوي الراسخ ، وقف بين الناس شاهراً سيفه . صائحاً :
ـ « إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات ، وإنه واللهِ ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران .. » .
« والله لَيرجعن رسولُ الله ، فليقطعن أيدي رجال زعموا أنه مات .. »
« ألا ، لا أسمع أحداً يقول إن رسول الله مات ، إلا فَلَقْتُ هامته بسيفي هذا » .. !!
تلك كانت حال عمر ؛ فكيف كانت حال سواه .. ؟؟
لقد كان موت الرسول ﷺ مفاجأة تامة للمسلمين على الرغم من سابق مَرضه .
كأنهم ما تصوَّرُوا قطّ أن يقال لهم ذات يوم : مات الرسول .. !
فلمّا أنفذ الله أمره ، واختار لجواره رسوله ، وكُتب على الناس أن يسمعوا في لُجج من الهول والأسَى كلمة الموت مقترنة بكلمات الرسول ، طار منهم صَوَابُهم ..
ولقد كان أبو بكر أحقَّ الناس بأكبر قدر من الأسى ، والذهول ..
فهو "صديق" العمر لمحمد ﷺ منذ طفولة الحياة وشبابها .. وهو "صِدِّيقُه" منذ أول أيام الوحي والدين .. وهو قد أحَبَّهُ حبًّا ، وآخاه مُؤاخاة تجعل الصبر على فراقه فوق طاقة البَشر .
لكنَّ أبا بكر كان يبدو وكأنَّه لا تحركه طاقات بشرية ، بل طاقة إلهية حَلَّتْ فيه .. !!
ولْندَع شاهد عيان يصف لنا ثبات أبي بكر عند الصَّدْمَة الأولى :
« أقبل أبو بكر ، يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء ، ودخل على رسول الله ﷺ ، وهو مُسَجًّى في ناحية البيت ، عليه بُرْدُ حِبرَة . فكشف عن وجهه ، ثم قَبَّله وقال :
«بأَبِي أَنتَ وأمي ، طِبْتَ حيًّا وميتاً ـ إن الموتَة التي كتبها الله عليك قَدْ مِتَّهَا ..
« ثم ردَّ الثوب على وجه الرسول ..
« ثم خرج ، وعمر يكلم الناس ، فدعاه للسكوت ، فأبى عمر إلا أن يسترسل في قوله ..
« فلمّا رآه أبو بكر لا يُنصت ، أقبل على الناس يكلمهم ..
فلمّا سمعوه أقبلوا عليه منصتين ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس :
« من كان يعبد "محمداً" ، فإن "محمداً" قد مات ..
« ومن كان يعبد الله ، فإن الله حَيٌّ لا يموت .
« ثم تلا هذه الآية :
﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .
« فوالله لكأن الناس يسمعون هذه الآية لأول مرة ..
« أما عمر ، فقد وقع على الأرض ، حين علم من كلمات أبي بكر أنه الموت حقا » .. !!

* * *

أفي هذه اللحظات الذاهلة ، والفاجعة المزَلْزِلة يكون مثلُ هذا الثبات .. ؟

« مَن كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات»

« ومَن كان يعبد الله ، فإن الله حَيٌّ لا يموت» .. !!

إن أقصى ما كان يُنتظر أن يُفيئه الجَلَدُ والسُّكينة ، كلمات توصي بالصبر وتمنح العَزَاء .

ولكن البديهة المؤمنة التي تشبه عين الصَّقْر ، وقعت في أقلّ من لَمْح البصر على كلمة السرّ التي ستردُّ الهمم المنسحقة تحت وطأة الفاجعة إلى وَعي قدير ، يستقبل تبعاته الجِسام ، ويعبرُ أزْمة الموت بسلام .. !!

ولم تكن كلمة السر سوى هذه الصيحة الحاسمة الفاصلة :

« مَن كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات » ..

« ومَن كان يعبد الله ، فإن الله حَيٌّ لا يموت" »

الله حيٌّ لا يموت .. ؟؟

إذن يا خيل الله اركبي ..

ويا راية الله ارتفعي ..

ويا حَمَلَة هذه الراية ، قوموا .. انهضوا .. وَاصلُوا رحلة الشمس المشرقة ، والدين الجديد .. !!

ولقد فعَلت صَيْحة أبي بكر في نفوسهم فعل القدَر ، فقاموا إلى الجسد الكريم المُسَجَّى ، وأدَّوْا له تَحيَّة الوداع ممزوجة بالعزم الأيْد الذي سيستقبلون به تبعات الساعة التالية .. !!

* * *

عندما نستعرض هذه المشاهد التي تَجلَّى خلالها إيمان أبي بكر ، نجد أنفسنا أمام سؤال بالغ الأهمية ..

هو : ماذا ، لو لم يكن هناك أبو بكر .. ؟؟

وسيتألق هذا السؤال ، ويَفرض نفسه بصورة آكدَ وأوضح عندما نعيش عمًّا قريب مع أبي بكر في اليومين العظيمين ـ يوم السَّقيفة ، ويوم الرِّدَّة ..

إن الأمر ليبدُو كَمَا لَو كان الله سبحانه حينَ اصطفى "محمداً" عليه الصلاة والسلام ليكون رسوله إلى الناس ، اجْتَبى معه في اللحظة نفسها "أبا بكر" رضي الله عنه ليكمِّل دور الرسول ﷺ..

وحين تتطلع حياتنا الإنسانية إلى أساتذة تتلقى عنهم ومن سيرتهم فنَّ الإيمان ، فإنها واجدة على رأس تلك القِلَّة النادر الباهرة ، رجُلَ الإسلام الكبير .. "أبا بكر الصديق" ..

ولقد عشنا لحظات مع إيمانه ، فلْنَرَ مع الصفحات المقبلة ، كيف حَمِل هذا المؤمن مسئوليات ذلك الإيمان ، وكيف وَهب حياته لتبعاته في تواضُع مُطلَق ، وسُمُو بَعيد ..

■ ■ ■

ولو خطفتني الذئاب ..

كان موقف الصدِّيق يوم وفاة الرسول بمثابة "البُوصلة" التي حدَّدَت اتجاه التاريخ نحو الرجل الذي سيملأ الفراغ الكبير الذي تركه الرسول برحيله .

فالرجل الذي لم يفقد شيئاً من "ثباته" أمام المفاجأة التي روّعت المسلمين ، جميع المسلمين .. !!

الرجل الذي احتفظ برباطة جأشه ، وسكينة نَفْسه ، وَسَداد فكره على هذا النحو الفذّ في هذا الموقف الذي يَدَعُ الحليم حيران .. !!

هذا الرجل هو الجدير بأن يتقدم ويقود .

ولم يكن ذلك فحسب مناط التزكية والتقديم ..

فهناك الماضي الحافل بكل بُطولة وكل مَكْرُمَة ..

ففي مرض الرسول عليه السلام ، اختار أبا بكر ليصلّي بالناس مكانه ، وقال : "مُـرُوا أبا بكر ، فَلْيُصَلِّ بالناس" .

وحين راجعَتْهُ السيدة عائشة في هذا قائلة : "إن أبا بكر رجل رقيق القلب ، وإنه إذا قام مقامك غلبه البكاء . فَمُر "عمر" أن يُصلّي بالناس" .

حين روجع النبي في الأمر غضب ، وأعاد أمره مرتين : "مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس" .

وامتثل الصدِّيق أمر الرسول ﷺ ، وهو لا يدري ـ أو لعلّه كان يدري ـ أنه في تلك اللحظات إنما يتسلَّم الراية من رسول الله ليحملها من بعده .

ولقد فوجئ أبو بكر إثر وفاة الرسول ﷺ مباشرة بموقف لم يكن يخطر بباله .

ذلكم هو موقف السقيفة الذي بدا مُنذِراً بِشَرٍّ مستطير ، ثم انتهى نهاية موفورة العافية والسعادة ، إذْ بُويعَ أبو بكر خليفة وإماماً ..

وحيث نطالع تاريخ "أبي بكر" لا نجدُ لديه أدنى رغبة في أن يحكُم الناس ، أو أن يكون خليفة عليهم .

إن شأنه في العُزوف عَن مناصب الدنيا ، شأن عمر .

بل إن "عمر" في زهده الجاه والمنصب ، كان يتأسّى بأبي بكر ، ويتتبّع خُطاه .

وجاء يومُ السَّقيفة ليجتاز إيمانه امتحاناً رهيباً .

وكُتب على الرجل الذي كانت هوايته أن يعيش في الظِّلّ مالم يكن ثَمَّة خطر يدعوه .

الرجل الذي كانت قُرَّةُ عينه في ألاَّ تقع عليه عين وهو في مكان صَدَارة يبعث في النفس زهواً وعُجْباً .

الرجل الْحَيِيُّ ، الوديع الأوَّاب ، كُتِب عليه أن يعلو صدر الأحداث فجأة ، لا طمعاً ولا رَغَباً ، ولكن تلبيةً لتبعات إيمانه ، ومسئوليات دينه .

فعلى إِثْر وفاة الرسول عليه السلام ، اجتمع نفر كبير من الأنصار في سَقيفة بني ساعدة ليبايعوا "سعد بن عُبادة" .

وعلم أبو بكر فذهب إلى السقيفة ومعه عمر وأبو عُبيدة بن الجراح .

لم يُسارع أبو بكر ليحتجز الخلافة لنفسه ، وإنما سارعَ ليكُفَّ الفتنة أولاً ، ثم لِيكبحَ جماح الطائفية ، حيث وقف مَنْ يقول: يا للأنصار ، ومَن يقول: يا للمهاجرين ..

ثم لِيسلُك مع المسلمين الطريق الأمثَل لاختيار الخليفة الذي يستطيع أن يملأ الفراغ الرهيب الذي كان يَمْلَؤُه رسول الله ﷺ .

واجَه أبو بكر الجمع المحتشد في أناة .

كان ثَمَّة كلمات تتطاير كالرصاص المقذوف ..

كان ناس من الأنصار يحرضون الأنصار على التشبث بالخلافة بأسلوب حادٌ ولاَهِب ..!

وكان هناك مُهاجرون يرفعون أصواتهم الزَّاجرة ضِدَّ رغبة ذلك النفر من الأنصار ..

لقد فقد الناس أكثر صوابهم بموت رسول الله ﷺ ، فلمَا أداروا خواطرهم حول موضوع الخلافة وهم في جوِّ الكارثة لايزالون ، اضطربت الأمور في أيديهم ، واتَّسعَ نِطاق البَلْبَلَة والاهْتياج ..

وليس أدلَّ على أن هذا الموقف كان دخيلاً عليهم وعلى إيمانهم من عودتهم السريعة إلى رُشْدهم واجتماع كلمتهم الغالبة حول هذا الحليم الأوَّاب .

صحيح أنَّ أبا بكر سَيُؤْثِرُ المهاجرين بالخلافة ، ولكن ، ليس لأنهم مهاجرون قُرَشِيُّون ، بل لأن الهجرة أعطتهم مكان السَّبْق في الإسلام .

فالهجرة كانت نهاية لمرحلة العُسرة التي سُلط عليهم فيها كل بأس قريش لِيُفْتِنُوا عن دينهم ، فما ازدادوا إلا إيماناً وثباتاً ..

وهذا هو الميزان الذي يزن أبو بكر به الناس .

ولقد استنبطه من كتاب الله سبحانه إذ يقول :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ .

ثم هو سيُؤثر المهاجرين بالخلافة أيضاً ، لأن النفر الذين طلبوا الخلافة من الأنصار قد حرصوا على أمر جَرَت عادة الرسول ألاَّ يُمكِّنَ منه من يطلبه أو يحرص عليه ، وهو الولاية ..

وإن أبا بكر ليذكُر ذلك اليوم الذي ذهب فيه العباس عمّ النبي ﷺ يسأله أن يوليه ولاية ، فأجابه عليه السلام قائلاً :

- إنَّا والله لا نُولِّي هذا الأمر أحداً يسأله ، أو أحداً يحرص عليه..!!

ذلك لأن مسئولية الحكم غُرْم لا غُنْم.. وتضحية لا تزكية ، فإذا حرص عليها أحد ، فمعنى ذلك أنه لا يقدِّر المسئولية التي تنتظره عندها ..!!

وهناك عند السقيفة همَّ عمر ليتكلم في الحشد الثائر ، لكنَّ أبا بكر أومأ إليه بيمينه ، واستأذنه في أن يبدأ هو الحديث :

- "يا معشر الأنصار" .

"إنكم لا تَذْكُرون فضلاً إلاَّ وأنتم له أهل" ..

هكذا بدأ الصِّدِّيق قوله .. ثم راح الحديثُ يَنْساب من قلبه .

وَمَضَى يُدلي برأيه فِيمَنْ يُرشح للخلافة .

إنه واحد من اثنين .

عمر بن الخطاب .. الرَّجُل الذي أعز الله الإسلامَ به ..

وأبو عبيدة بن الجراح .. الذي وصفه الرسول ﷺ بأنه "أمين هذه الأمة" ..

"لقد رضيتُ أحدَ هذين الرجلين ، عمر ، وأبي عبيدة .." وارتعدت يد "عمر" كأنما سقطت عليها جمرة ملتهبة..

وغض "أبو عبيدة" عينيه الباكيتين في حياء شديد..

وصاح عمر:

- والله لأن أُقَدَّم فيضرب عُنقي في غير إثم ، أحبُ إليَّ من أن أُؤَمَّر على قوم فيهم أبو بكر .. !!

وكان جلال هذا المشهد أبلغ من كل مقال..

فما كاد عمر يلقي بكلمته هذه ويتقدم باسطاً يمينه ، مُبَايِعاً أبا بكر .. حتى ازدحم الأنصار على البيعة وكأنما دعاهم من السماء داعٍ .. !!

لقد كره المسلمون أن يعيشوا يوماً واحداً بغير إمام يجتمع عليه أمرهم .

فذهبوا يبحثون الأمر، ورسول الله ﷺ لم يُدفن بعد ، وأعصابهم رازحة تحت وطأة موته..

ولقد كان من المحتمل ألاَّ ينتهي "يوم السقيفة" دون أن يترك في البناء شروخاً غائرة .

لكن الله أكرم الإسلام والمسلمين يومها بأبي بكر . واجتاز الناس في سلام عظيم أول تجربة من نوعها وأقساها .

وغربت مع شمس ذلك اليوم كل الخلافات .

إن العظائم كُفُؤُها العظماء ..

ولقد اختار القدرُ هذا العظيم ليواجه جلائل الأمور وعظائم المستقبل .

ولسوف يُثبت هذا الخليفة العظيم جَدارَته بالمكانة التي بوَّأه الله إياها في قلوب الناس ، وفي قلب التاريخ.. وسيتحرك تجاه الأحداث الداهمة بأسلوب يكشف عن مَدَى ما يستطيع الإيمان أن يقهر من صعاب ، ويأتي من معجزات ..

فما كاد نبأ موت الرسول عليه السلام يَذيع في البلاد حتى تصوَّر المرجفون والذين في قلوبهم مرض ممن كان إسلامهم مُداهنةً وتَقِيَّةً .. تصوَّروا أن الرسولﷺ لم يمت وحده، وإنما مات الإسلام معه .. وعليهم أن يتحركوا بسرعة ليرثوا ذلك الدين الذي انتهى في ظنهم، وليستردُّوا جميع الامتيازات التي كانوا قد فقدوها تحت ضغط الدين الجديد ..

وهكذا بدأت انتفاضات ، لم تلبث حتى تحوَّلت إلى ردَّة مستشرية ، وجيوش يُنادي بعضها بعضاً للزحف على المدينة ، والإجهاز على الإسلام .

في البلاد البعيدة من المدينة كان أكثر المسلمين حديثي العهد بالإسلام ، وكان الدين مرتبطاً في وجدانهم ارتباطاً كاملاً بصاحبه وبرسوله . فلمّا مات الرسولﷺ ، وقام فيهم من رؤسائهم مَن استغلَّ حداثة إسلامهم ، ساروا وراءه مرتدين .

والحقُّ أنها لم تكن أول الأمر ردَّة كاملة عن الدين .

إنما كانت "إضراباً" عن دفع الزكاة ..

لكنَّ أبا بكر رآها ردَّة ، ورآها عَجْماً لِعُود الإسلام بعد أن مات رسوله ، فإذا أبدى الإسلام عن أيِّ ضعف أمام هذا التمرُّد ، فستجاوزِ العواقب كل حُسبان - ويومئذ ظهر رأيان :

* رأيٌ يرى ألاَّ يُقاتَل هؤلاء ، ما داموا لم يقترفوا سوى امتناعهم عن دفع الزكاة ، وعلى رأس هذا الفريق ، عمر بن الخطاب .

* ورأيٌ آخر ، يرى أن الزكاة - أوّلاً - ركن من الدين ، ليس من حقِّ الخليفة أن يدع الناس يهدمونه ، ويرى - ثانياً - أن الامتناع عن أدائها ، ليس سوى البداية .. وليس سوى حركة استطلاع ، يتوالى بعدها التمرد والقضاء على الإسلام .

وحمل لواء هذا الرأي أبو بكر .

وهنا يَبين الفارق الخفي بين طرازين من العظَمة ، وهو فارق تَناهَى في الخفاء والدِّقَّة ..

ولو سئِل الناس - جميع الناس - قبل أن يعلن كل من أبي بكر وعمر عن رأيه في هذه الأزمة ، لو سئِل الناس : مَن الذي سيكون أكثر صرامة وشدة ، ومن الذي سيكون أكثر ليناً ومُهادنة ؟ لما تردَّدوا في أن يشيروا إلى "عمر بن الخطاب" منادياً بالقمع الصارم ، وإلى "أبي بكر" داعياً إلى الأناة والملاينة .

ومع هذا ، فالذي حدث كان العكس والنقيض ..

فلقد باكَر "الصديق" الأزمة بإرادة مشحوذة ، مصمِّمة على أن تَضرب في غير تردُّد ، موضحاً اقتناعه في هذه الكلمات :

-والله لو منعوني عِقَال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه بالسيف"!!

أما "عمر" ، فيقف من الأزمة موقفاً مغايراً .

ويوجِّه إلى الخليفة هذا السؤال:

- « كيف تقاتل قوماً يشهدون أن لا إله إلا الله ، وقد أخبر الرسول ﷺ أنَّ مَن قالها فقد عصم دمه وماله » ..؟؟

ويجيبه أبو بكر سائلاً :

- أَلَمْ يقل الرسول ﷺ "إلاَّ بحقها" ..؟ ألا إن الزكاة من حقها ..

ووراء موقف أبي بكر هذا علامتان مضيئتان :

أولاهما : تكشف عن يقين أبي بكر "المؤمن" ..

وثانيتهما : تكشف عن بصيرة أبي بكر "الخليفة والزعيم" .

* فيقينه بالله وبرسوله يرتفع إلى مستوى الإذعان المطلق لِما ألقياه من أمْر ومنهاج .

وهو بهذا يحمل كل مسئوليته عن الدين ، فلا يسمح بأن يتغير على عهده شيء من شرع الله وسنَّة رسوله . وكلُّ فريضة توفي الرسول ﷺ وهي قائمة ، لابد من أن تظل قائمة مهما تكن التضحية .

* وهو ببصيرة القائد والحاكم والزعيم . يرى أن أيَّ بادرة من الضعف تغشى الإسلام في هذه الأزمة الفاصلة ، ستُغري قُوى النكسة والظلام بالوثوب عليه من كل واد ..

بإيمانه ذاك ، وببصيرته هذه ، تشكَّلت في باطنه قوة هائلة هيأت عقله وإرادته لمواجهة الموقف على النحو الذي سبق ، والذي أظهر سَيْر الحوادث أنه لولاه لتعرض الإسلام لما يشبه الفنَاء ..

لكن هذا الإيمان وهذه البصيرة لم يكونا يعملان بمعزل عن رأي الجماعة ، وحقّها في الشُورى والمناقشة ..!!

فعلى الرغم من أن أبا بكر في أزمة الردة كان يستطيع أن يمضي في الحرب دون أن يقتنع بها الآخرون ، بل حتى لو لم يقتنع هو بها ، لأنه في هذا - إنما يُنفِّذ حكماً شرعيًا لا يملك هو ، ولا المسلمون ، أن يبدِّلوه ما داموا قد آمنوا بالقرآن واتَّخذوه دستوراً وشِرْعة ، وما دام القرآن يقول لهم :

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ..

وعلى الرغم من هذا ، فإن أبا بكر لم يمتشق حُسامه حتى اقتنع المسلمون برأيه ، واقتنعوا بأنهم حقا ليسوا أمام مجرَّد محاولةٍ للنكوص عن دفع الزكاة.. بل هم أمام تجمهر مُسَلَّح ، وزحف أكيد على المدينة وعلى الإسلام..

وساعتئذٍ قال عمر قولته المأثورة:

"فما هو إلاَّ أنْ شرح الله صدري لرأي أبي بكر" ..

وقال ابن مسعود كلمات تصوِّر الموقف أصدق تصوير :

- "لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كِدنا نَهلِك فيه لولا أن مَنَّ الله علينا بأبي بكر"!!

لقد كان ثَمَّةَ قَدْر يسمح باختلاف الرأي في هذا الموضوع ويأذن بتباين النظر .. ومن ثمَّ عرض أبو بكر المسألة للمناقشة مُبدياً تصميمه على أن يحمل المسئولية التي يفرضها عليه القرآن .

وكان هذا القدر الذي سمح بتبادل الرأي متمثلاً في الصورة التي بدأت بها المحاولة المرتدَّة .. إذ كانت في الساعات الأولى لها مقصورة كما ذكرنا على الامتناع عن دفع الزكاة .

فهل يُوجب الامتناع عن دفع الزكاة القتال ..؟

وبأسلوب عصرنا الحديث نقول: إن الأزمة بدأت بحركة "عصيان مدَني" تمثَّل في الامتناع عن دفع الضرائب ، وتحوَّل إلى "عصيان مسلح" ليؤكد حقَّه في هذا الامتناع ..

فهل تقف الحكومة ساكتة ضارعة أمام هذا التَّحدِّي .. أو تحمل مسئولية زجره وقمعه ..؟

هذا ؛ مع ملاحظة أن الذين امتنعوا عن دفع الضريبة وحملوا السلاح ، لم يظلوا مكانهم في ديارهم مكتفين بموقف الدفاع إذا هوجموا ، بل نادى بعضهم بعضاً ليزحفوا على المدينة ..

هذا هو وَضع الأزْمَة تماماً .

ومع ذلك ، فقد بلغ التَّسامح تجاهها أن يختلف فيها المسلمون ، ويتبنَّى الرجل الثاني فيهم وهو عمر بن الخطاب ، الرأي الهاتف بالمُوادعة ، وتركهم حتى يَفيئوا تلقائيًا إلى أمر الله وهُداه ..!!

* * *

ونغادر موقف الردَّة هذا وقتاً وجيزاً ، لنرى موقفاً آخر سبق وقفة الردَّة ، وتجلَّى فيه إيمان أبي بكر بربه وبرسوله ، على نحو يجعل من هذا الرجل الشَّاهق الباهر نَسِيجَ وحدِهِ في الإيمان .. ذلكم هو موقفه من بَعث أسامة ..

فقبل وفاة الرسول ، كان عليه السلام قد أعدَّ جيشاً بإمْرَة "أسامة بن زيد" ، ووجْهته الشام ..

وكان الجيش يوم مات الرسول ﷺ مُعَسكراً على بعد ثلاثة أميال من المدينة ، يتهيأ للسَّيْر .

وأرجأتْ وفاة الرسول زَحْفه . واختلف الرأي بعد هذا في أمره ..

فرأى فريق من المسلمين ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، أنَّ بَعْث جيش أسامة إلى الشام مخاطرة رهيبة في الوقت الذي أصبحت المدينة نفسها ـ عاصمة الإسلام ـ مهددة بغزو المرتدين .

ورأوا ضرورة عودة الجيش إلى المدينة ليكون في مواجهة الأحداث الجديدة الزاحفة .

وكان "أسامة" نفسه ـ قائدُ الجيش ـ من أصحاب هذا الرأي .

والمسألة حين تُقاس بالمنطق الْمُجَرَّدِ لا يبدو الصواب إلا في هذا الرأي الذي تبنَّاه عمر وأسامة ..

لكن أبا بكر يستمد منطقه من إيمانه.. وكل قضية عنده تتسع للاجتهاد إلا قضية أبرم الله فيها حكماً ، فليَكن ما أمَر الرسول ﷺ به ، مهما تكن مستحدثات الظروف ، ومهما تكن الأخطار التي تهدد المدينة ..!!

وهكذا كان جواب أبي بكر للناس :

ـ "أنفذوا بَعْثَ أُسامة ؛ فوالله لو خَطفتني الذئاب لأُنَفِذَنَّهُ كما أمرَ رسول الله ﷺ ، وما كنت لأَرُدَّ قضاءً قضاه" ..!!

لم يعد ثَمَّة نزاع في الأمر ، ولم يكن أبو بكر بتصميمه هذا مُفتئِتاً على آراء الآخرين ، لأن القضية أساساً ليست مما يُعرض للشورى بعد أن قال فيها رسول الله ﷺ كلمته وأَعْطَى أمره .

وأبو بكر يُؤْثر أن تتخطفه الذئاب على أن يردَّ للرسول قضاء ، أو يُعطِّل مشيئة ..!!

وعاد بعض المسلمين وعلى رأسهم "عمر بن الخطاب" أيضاً ، يطلبون من "أبي بكر" أن يجعل على رأس الجيش قائداً غير "أسامة" الذي كان فتًى صغير السن ، محدود الخبرة ، ولا سيَّما في هذا الجيش شيوخ الصحابة وأجِلاَّؤهم .

وهذه المسألة أيضاً إذا بُحثت في ضوء المنطق المجرَّد يبدو ذلك الرأي سديداً .

لكنَّ أبا بكر في هذا ، شأنه في كل أمر يستمد منطقه من إيمانه..

فالذي وَلَّى أسامة قيادة هذا الجيش ، هو رسول الله ..

ولقد رضيه الصحابة ورسول الله حيٌّ، أفيخلع أبو بكر رجلاً ولاَّه الرسول ﷺ ..؟؟

لم يكد عمر يعرض الرأي المقترح على أبي بكر حتى ثار الرجل الحليم ثورة ما ثار مثلَها قبلُ ولا بعد ..!!

ولْنَدَعْ شاهد عيان يصف لنا المشهد فيقول:

ـ "وَثَبَ أبو بكر من مكانه وأخذ بلحية عمر ، وقال: وَيْحك يابْنَ الخطاب .. أَيُوَلِّيه رسول الله ، وتأمرني أن أعزِلَهُ" ؟؟!!

ثم قام يتبعه عمر إلى حيث كان الجيش معسكراً ، فدعاهم للتحرك على بركة الله وسار معهم مُودِّعاً ..

ومشى الخليفة على قدميه إلى جوار أسامة الذي كان ممتطياً ظهر فرسه ..

واستحْيا أسامة ، فهمَّ بالنزول داعياً خليفة رسول الله إلى الركوب ..

"فَثَبَّتَهُ أبو بكر بيده في مكانه وهو يقول : والله لا نَزَلْت ولا أَرْكب .. وماذا عليَّ أن أُغَبِّرَ قَدَمَيَّ في سبيل الله ساعة" ..؟!!

كل أمر عنده سهل ، وكل جَلَلٍ يهون ، إلا أمراً يدعوه إلى الخروج قيد أُنملة عن طاعة الله ورسوله ..

إن بينه وبين الله عقداً وموثِقاً يتمثلان في إيمانه الراسخ الصامد ..

وإنه لَمصمِّمٌ على أن يحمل ـ حتى الموت ـ الالتزامات كافة ، التي يفرضها هذا الإيمان . ولو تخطَّفته الذئاب !!

وهو على يقين أن الإيمان يحمل معه بصيرته التي تهدي إلى الحقِّ وإلى الصواب .

وفي قصة أسامة بالذات تجلّى صدق هذا اليقين .

فإصرار أبي بكر على إنفاذ بعْث أسامة لم يُفِئ عليه مثوبة الطاعة فحسب ، بل أفاء عليه الرُشد والمنهج الصواب ..

فهناك صوْب الشمال كانت الفتنة قد شرعت تَذِرُ قَرْنيها ..

ولكن لم تكد القبائل التي مرَّ بها جيش أسامة وهو في طريقه إلى الشام .. لم تكد تبصر هذا الجيش اللَّجِب حتى عاد إليها صوابها ، وقال بعضهم لبعض :

ـ والله لو كانت المدينة تئِن تحت وطأة الضعف والخلاف كما سمعنا ، ما كان بوُسعها أن تبعث هذا الجيش ، في هذه الأيام لتقاتل الروم..!!

وهكذا كان مجرَّد تحرُّك الجيش إلى غايته مُثبطاً أيَّ مثبط لكثير من القبائل التي كانت فتنة الرِّدَّة تتسلل إليها ..!!

* * *

ونعود إلى الصِّديق وهو يواجه الرِّدَّة بإيمانه الصَّلب .

وعندما نعيش مع المصادر التاريخية التي سجَّلت أحداث تلك الأيام الفاصلة يأتلق حتى يملأ الأفق سؤال أكيد هو :

– أيُّ مصير كان ينتظر الإسلام لو لم يكن أبو بكر يومئذٍ هناك ..؟؟

لقد كان ابن مسعود يُبَسِّط الحقيقة الكبرى في قولته السالفة .

"لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه ، لولا أن مَنَّ الله علينا بأبي بكر" ..

أجل ، لقد كان "أبو بكر" يومئذٍ نعمة الله ومَثوبته للدين ، وللناس ...

قد تضرَّمت الأرض ناراً في الجهات النائية من المدينة ، والتي كان معظم أهلها حديثي عهد بالإسلام ، ولم يكونوا يتصوَّرون بفطرتهم الساذجة أن رسول الله يموت كما يموت الناس ، وهكذا بهذه السُّرعة ..!!

لقد سقط هؤلاء تحت صياح الكاذبين المَهَرَة الذين كانوا يتربَّصون بالإسلام كل سوء.

لقد انشقَّت الأرض فجأة عن كل الموتورين به والمتربِّصين. وعن أنبياء كَذَبة ، قادوا ببراعة الإفْك ، جميعَ الذين كانت الغفلة تُرشِّحهم لأن يكونوا ضَحايا أكاذيبهم ، ولا سيما أولئك البعيدين من المدينة والداخلين في الإسلام من قريب..

وقف طُليحة الأسدي يعلن نُبُوَّة كاذبة ، وتبعه الكثيرون من قبائل أسد ، وغطفان ، وطيِّئ ، وعبس ، وذبيان ..

ثم اشتعلت نيران الردَّة في بني عامر ، وهوازن ، وسليم ..

ثم شبَّت في بني تميم ، وجاءتهم المرأة "سَجاح" تزعَق فيهم بنبُوَّتها الضالة المُهرَّجة..!!

ثم تمرَّد أهل اليمامة رافعين لواء أخطر مُدَّعي النبوَّة جميعاً – مُسَيْلِمَة الكذاب ..

وهكذا بعد أن كان أبو بكر يُواجه فُلولاً صغيرة ، أصبح أمام جيوش جرَّارة ، قوامُها عشرات الألوف من المقاتلين .

وسرَت العدوى إلى أهل البحرين ، وعُمان ، والمهرة ، وصار هؤلاء وأولئك يتغنَّوْن ببيتٍ من الشعر أطلقه أحد شعرائهم..

أطَعنا رسول الله ما دام بيننا فيَا لَعِبَاد الله ، مَا لأبي بكر؟؟

ولكنْ ، لله من خَلْقِه رجال تتحوَّل المحن بين أيديهم إلى مِنَحٍ، والكوارث إلى ربيع، تملؤه روح الحياة ..!!

وأبو بكر من هؤلاء الرجال ...!!

فخلال هذه المِحنة الصاهرة التي ألمَّت بالإسلام ، تكشَّفَتْ كل جوانب الضعف في البناء البَشَري للإسلام ، وهبَّ الرجل الحكيم القوي من فوره ، فرأبَ الصَّدْع ، وحوَّل الصفَّ إلى تماسكٍ واقتدار ..!!

وكانت حظوظ الإسلام وافية ، ومقاديره سعيدة ، إذ جاءته هذه المحنة وأبو بكر حامل الراية ، وقائد الأمة ..

وبفضل من الله ورحمة ، تفوَّق الرجل الكبير والخليفة المؤمن على أخطار كانت حريَّةً بأن تُداعِي بناء إمبراطورية شامخة راسخة ، فما البالُ بدين ناشئٍ غضٍ جديد ..؟!

وكانت تلك الأيام المزلزلة أعظم أيام الإسلام بعد رسول الله ﷺ وأخصبَهَا ، وأكثرها بركة عليه ، وخيراً لمصيره .

لقد سقطت الأقنعة عن الوجوه المتنكِّرة ، وتقايأت الصدور الموتورة كل أحقادها الدفينة ، وأقبلت النار المباركة تصهر الأمة الجديدة وتَنفي خَبَثَها بصورة شاملة ، وأكَّد إيمان أبي بكر مقدرته ، لا على اقتحام العقبات فحسب ، بل على أن يعلِّم الدنيا كلها أهمية الإيمان .

لقد آمن بأن الله حقّ ، وبأن الإسلام حقّ ، وبأن محمداً رسول الله حقّ .. فلم يَعُدْ له مع هذا الإيمان أن ينكُث أو يتردَّد ..

ولقد تركهم رسول الله ﷺ على المحجَّة البيضاء ، ليلُها كنهارها .. وأبو بكر اليوم خليفة الرسول على هذا التراث ، وواجبه أن يفعل كل ما يعتقد أن الرسول ﷺ كان يفعله لو أنه اليوم حيّ ..

أفكانَ الرسول ﷺ يقف صامتاً أمام أولئك الكَذَبة الذين يحاولون أن يُنكِّسوا راية الحقّ ، ويطفئوا نور الله ..؟

إنهم برغم فساد منطقهم ، لم يتوسَّلوا بالمنطق ، بل حملوا السلاح وتنادَوْا لغزو المدينة . فليصنع ما كان النبي ﷺ صانِعَه ..

وهكذا أرسل بأسه العادل على المتمردين في كل مكان ، وانتصرت جيوشه على تلك المعاقل .. ثم تعقَّبت المصادر الخفية المحرِّكة للفتنة.. هناك في الشام والعراق ، حيث كانت الروم والفرس تتخذان منهما مراكز وُثوبٍ ، وأوكار مُؤامرة ..

وهناك في الشام ، وفي العراق ، وفي دومة الجندل ، وجدت جيوش الإسلام قوماً عِطاشاً إلى الهُدى والعدل والأمن ..

أين المرتدُّون الذين حملوا السلاح ليقضوا على الدين الجديد..؟؟

أين مُسَيْلمة ، وطُليحة ، وسَجاح ، بجيوشهم الجرارة .. ؟

أين أولئك الذين كانوا يتغنَّوْن وهم يرقصون بأسلحتهم قائلين: فَيَا لَعِبادِ الله ، ما لأبي بكر ..؟!

لقد تمزقوا بَدَداً كبقايا زوبعة ضالَّة ، وولَّوا أمام الحقّ ، نائحين بشِعْر آخر:

ألا فاسْقِيَاني قَبل خَيْلِ أبي بكر   لعلَّ منايانا قريبٌ ، ولا نَدري!!

"خيل أبي بكر" ..؟!!

لقد صارت هذه العبارة كقعقعة الهول في أسماع الذين أرادوا أن يُخضعوا الحقَّ للباطل ..!!

* * *

ترى أيُّ انقلاب هائل مَخر عُباب شخصية أبي بكر..؟!

الحقُّ أنه لم يكن ثمة انقلاب ما ، وليست مواقف الصديق ـ مهما تتعاظم كلَّ مألوف ـ بِغَريبةٍ عليه ..

فطبيعة هذا الرجل العظيم من الطبائع التي يتم نُضجها واكتمالها في بواكير العمر دون أن يكون لها في مقبل الأيام نَشاز أو غرابَة أطوار ، إنما يكون لها امتداد طبيعي في الآفاق الواسعة لخصائصها ، وفضائلها ، وقُواها..

فأبو بكر الوديع ، هو أبو بكر القوي ، منذ لبس ثوب الحياة.

وقوَّته هذه الصامدة العارمة التي تبدَّت عنه وهو خليفة ، هي نفس قوَّته التي كان يملك زمامها ورسول الله حيّ ..

لكنه في أيام الرسول ﷺ ، كان يجتهد أن يبقى في الظلال ، فلا يقع عليه ضوء ، ولا يُعزَى إليه فضل .

أما بعد وفاة الرسول عليه السلام ، فقد صار ـ شاء أم أبى ـ صاحب الدور الأول والرئيسي على مسرح الأحداث .. ومن ثَمَّ لن يستطيع أن يُخفي مَزاياه وسْط الزحام ، لأن مسئولياته وَضَعَتْه أمام جميع الصفوف ..

وهكذا أُتيح للإسلام أن يرى بصورة أوضح خصائص ابنه المبارك العظيم ..

إن قوَّته وصلابته اللتين يُواجه بهما مسئولياته كخليفة ، هما اللتان واجه بهما من قبل مسئولياته كمؤمن ..

* ففي الأيام الأولى للدعوة ، لم يكن يسمع أن الرسول ﷺ في أذًى ، إلا ويهرول مسرعاً ، فيخلِّص الرسول من الأذى ويُسلم نفسه إليه ..!!

* ويوم الهجرة ، تمتلئ نفسه غبطةً بصحبة رسول الله ﷺ ، وهو على يقين بأن قريشاً ستُجَنِّد لمطاردتهما كل بَأْسِها وقواها ..

* ويوم بَدر ، يلازم الرسول في خيمته ، وهو يعلم أن الخطر كله إنما يُحْدِق بهذه الخيمة .

* ويوم أُحُد ، حين خالف الرُّماة نبيَّهم ، ظانِّينَ أن المعركة قد انتهت بهزيمة قريش ، فتركوا موقعهم أعلى الجبل ، حيث عاد جيش قريش فدمْدَم على المسلمين وأصلاهم هزيمة أليمة .. وخلا الميدان إلا من جُثث الشهداء يمثل بها المشركون في وحشية داكِنة .

يومئذٍ بَصُرَ الرسول بأبي بكر ، يجري وحده إلى المشركين شاهراً سيفه ، فيناديه في ضَرَاعة عالية .

"اغمد سيفك يا أبا بكر ، لا تَفْجَعْنا بنفسك" ..

ويُواصِل الرسول نداءه لأبي بكر آمراً إياه أن يعود ، فيعود .

فما كان له أن يعصي لرسول الله أمراً ، حتى لو حالَ الأمر بينه وبين جلال الاستشهاد الذي كان مندفعا نحوه في شوق عظيم ..!!

* * *

هذه هي القوة الأمينة التي كان أبو بكر يستمدها من أعماق كِيانه ، ومن أعماق إيمانه .

كيانٌ عربي حُر ، تَلَقّى من تربيته ومن بيئته أروع المزايا ..

وإيمانُ صِدِّيق عظيم ، يؤثر أن تتخطفه الذئاب ، ولا يعصي لإيمانِهِ أمراً ..

وإن مواقفه الباهرة ، قبل الخلافة وبعدها ، لَتُشكِّلُ نَموذجاً واحداً من القوة ، والأمانة ، وسلامة التقدير .

ذلك أن الله أنعم عليه بطبيعة قويمة ، وإيمان مكين .

إيمانِ رجل أسلم وجْهه لله ، وهو مُحْسِن ..

وأعطى حياته لإيمانه وهو مُغتبط ..

وحملَ مسئوليات دَوْره في تُقًى ، وأمانة ، وبصيرة .. !!

■ ■ ■

وَلَسْتُ بخيْركم ..

هذا الرجل العظيم المتفوّق .

كيف عاش حياته كحاكم ، ومَارَسَ دوره كخليفة .. ؟ .

هذا الذي وُلد سيداً ، وعاش سَيّداً ..

هذا الذي لم تُفْلِت منه مَزيّة ، ولم تغِبْ عنه فضيلة ...

هذا الذي أنقذ الإسلام من خطر محقق ، وردَّ إليه حياته وثَباته ..

هذا الذي بدأت أبراج كسرى وقيصر تتساقط تحت قدميه ، والعالم القديم كله يتداعى بين يديه ..

هل غيَّرت الخلافة من جوهر نفسه أو من أسلوب حياته .. ؟

هل نسِيَ تَواضُعَه ، وفضائله في زَحمة انتصاراته .. ؟!

هل عاش خليفة ـ فوق ـ الناس ؟

أم ظَلَّ واحداً ـ بين ـ الناس ... ؟

لنقف في رحابه لنرى ..

ولنبدأ باللحظات الأولى من خلافته .

ها هو ذا ينقل خُطاه في حياء ووَجل ، مُيَمِّماً وجهه شطر منبر رسول الله ﷺ.

هذا المنبر الذي طالما نادى النَّبيُّ المسلمين من فوقه ، ودعاهم إلى الهدى ودين الحق ..!!.

ها هو ذا أبو بكر ، يصعده مرة ، بعد أن غاب عنه فَيْصَلُهُ وربَّانه ..

وإنه ليصعد درجتين ثم يجلس، فهو لا يبيح لنفسه أن يصعد كل الدَّرج، وكل المُرْتَقَى..!!.

لا يُبيح لنفسه أن يجلس حيث كان الرسول ﷺ يجلس ..

وها هو ذا يستقبل الجمع الحاشد يتلو على الناس مَوْثِقَهُ وعهده :

« أيها الناس ..

إني وُلِّيتُ عليكم ، ولَستُ بخيركم ..

إن أحسنتُ فأعينوني ..

وإن أسأت فَقَوِّموني ..

ألا إن الضعيف فيكم قويّ عندي ، حتى آخذَ الحقَّ له ..

ألا وإن القويَّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذَ الحقَّ منه ..

أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله ..

فإذا عصيتُ فلا طاعة لي عليكم » .. !! .

إننا على كثرة ما وَعَى التاريخ من مواثيق وخُطب استهلَّ بها الحكام عهود حكمهم ، لم نَجِدْ قط ـ ولن نجد أبداً ـ مثل هذه الحكمة ، وهذا القِسْطاس !! .

ولقد زاد الموقف روعة وعظمة أن سُلوك صاحبه لم يَنِدَّ عنه لحظة، ولم يَعْزُب عنه قيد شَعْرة..!!.

لقد كان أبو بكر بهذه الكلمات المعجزات ، يضع في إطار من الذمة والصدق مسئوليات الحاكم الأمين ، ويكشف عن جوهر كل حكومة صالحة ..

« إني وُلِّيتُ عليكم ولَسْتُ بخيركم » .

بالله ما أروعها من بداية .. !!

فهو يريد أن ينزع من صدور الناس أيَّ وَهْمٍ يجعلهم يضعون الحاكم فوق قَدْره ومكانه ..

يريد أن يُقِرَّ في أفئدتهم أن الحكم ليس مزيَّة ولا امتيازاً .

إنما هو خدمة عامة في أكثر مستويات هذه الخدمة مشقَّة ومسئولية وشظفاً .

إنه بهذه الكلمات الوضَّاء يُقَرِّرُ :

أن الحُكم وظيفة لا استعلاء ..

وزمالة لا كبرياء ..

ويقرر أن الحاكم "فرد" في الأمَّة .

وليسَ "الأمَّة" في فرد ..

« إني وُلِّيتُ عليكم ، ولَسْتُ بخيركم » .

أجَل ..

إنه ليس بخيرهم لأنه حاكم ..

ولكنه خيْرُهم لأنه حكيم .. لأنه الصِّدِّيق الذي توافَر له من الصدق ومن الإيمان ، ومن الأمانة ، ومن الرُّشد ما جعله ثانِيَ اثْنَين ..

ومَن أجْدَرُ منه بهذه الكلمات .. ؟

مَنْ أحقُّ مِنْ أبي بكر وأوْلَى بهذا الموقف .. موقف الحاكم الذي يدرك تماماً أنه لَن يكون عظيماً إلا بقدر ما تكون أمَّته عظيمة ..

ولن يكون حُرًّا إلا بقدر ما تكون أمَّته حُرَة ..

ولن يكون عزيزاً ، إلا بقدر ما تكون أمَّته عزيزة ..

ولن يكون آمناً إلا بقدر ما يكون شعبُه آمناً ..

وسبيل ذلك عنده أن يملأ الشعبُ مكانَه ؛ ويدرك أنه الضَّمان الأوحد لكل ما يرجى للوطن وللحاكم من خير وعدْل وسَدَاد .. !!

« لَسْت بخيركم .. » .

« فإن أحسنت فأعينوني » .

« وإن أسأت فقَوِّموني » !! .

وهذه هي وظيفة الشعب عند أبي بكر .

وهذا هو جوهر علاقته بحاكمه .

أن يكون عوناً له على نفسه وعلى مسئولياته .

وذلك لا يتم إلا بأن يقف منه موقف الشَّريك البصير لا موقف التَّابع الضرير ...

يُعينه إذا أحسن .

ويُقَوِّمه إذا أساء ...

ثم ينتقل أبو بكر في خطابه وميثاقه إلى سيادة القانون فيعلنُها ، ويؤكد إصراره عليها ...

« الضعيف فيكم قوي ، حتى آخذ الحق له .. »

« والقوي فيكم ضعيف ، حتى آخذ الحق منه .. »

« أطيعوني ما أطعت الله ورسوله .. »

« فإذا عصيتُ ؛ فلا طاعة لي عليكم .. ! » .

* * *

أيُّ صدق ... وأيُّ رَوعة .. ؟!

رجل له كل هذه المزايا وسْط هذه الجماعة المؤمنة ، ثم يبدأ خلافته داعياً الناس في إصرار عظيم كي يأخذوا مَكانَهم إلى جواره .. لهم الحقوق نفسها ، وعليهم الواجبات نفسها .. ! .

أجل .. لقد كان عظيماً ـ أيَّ عظيم ـ وهو يُعَلِّم الناس بقوله وبسلوكه أنه لا يَفْضُلُهم في شيء ، وأنه في حاجة دائمة ومُلِحَّة إلى ما معَهم من فضل ، ومن رأي ، ومن اعتداد بالنفس ، وصلابة في الحقَّ ...

* * *

ولقد تقبَّل الخليفةُ منصبَ الخلافة غيرَ راغبٍ فيه ، ولا حريص عليه ، ولولا أنها التَّبِعَاتُ الفاصلة في الأيام الحاسمة لأوَى إلى رُكن بعيد ، ولَهَرَبَ مِنْ ذلك الذي يُسارع الناسُ إليه ، ويتهالكونَ عليه ..

لقد كان صادقاً حين قال :

ـ « والله ما كنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة .. ولا سألْتها الله في سِرٍّ ولا علانية » ..

أجل .. لم يكن عليها حريصاً .

ولولا أن يكون بتخلِّيه عنها قد هرب من مسئوليات دينه وإيمانه لاتَّخَذَ سبيله إلى الفرار سَرَباً ..!!

ولقد حاول ذلك فعلاً بعد أن فرغ من قمْع فتنة المرتدين .

فذات يوم دخل عليه عمر ـ رضي الله عنه ـ داره ، فَألْفَاهُ يبكي .

وما كاد يبصر عمر أمامه حتى تشبّث به كأنه زورق نجاة ، وقال له :

ـ « يا عمر ، لا حاجة لي في إمارتكم .. » .

ولم يتركه "عمر" يُتم حديثه ، فقد بادَرَه قائلاً :

ـ « إلى أين المفر .. ؟ والله لا نُقيلك ، ولا نستقيلك » .. !!

* * *

والآن ، لنقترب من بعض تلك المشاهد .. حيث يضع الخليفة موضع التنفيذ ، خِطابَه الذي أعلنه يوم بيعته .

لِنَقْترب ولْنرَ هذا الابن المبارَك العظيم .. لا للإسلام وحده .. بل للحياة كلها .

لِنُبصر هذا الحاكم الهاطل يملأ حياة الناس عافية ورحمة ، وَرَوْعةً وأمْناً .

لقد كتُب عليه أن يبدأ عهد خلافته بواقعة امْتُحِن فيها ولاؤه للقانون وللحقّ امتحاناً عظيماً .

ذلك أن السيدة فاطمة بنت رسول الله ، والعباس عمّ رسول الله ، ذهبا إليه يسألانه حقهما في قطعة أرض صغيرة كان الرسول ﷺ قد أصابها في بعض الفيء ، وكان عليه السلام يعطي السيدة فاطمة وبعض أهله جزءاً من نتاجها ، ثم يقسم الباقي بين فقراء أصحابه .

والآن ، بعد وفاته ـ عليه السلام ـ ذهبت فاطمة رضي الله عنها إلى خليفة الرسول ﷺ تسأله هذه القطعة من الأرض باعتبارها ميراث أبيها عليه السلام .

قال أبو بكر لها وللعباس :

ـ « سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « نحن مَعاشِرَ الأنبياء لا نُورَث ، ما تركناهُ صَدَقة » ، وإني والله لا أدَعُ أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صَنَعْتُه ؛ فإني أخشى إن تَرَكْتُ شيئاً من أمره أن أزيغ » .

إن أبا بكر يعلم أن أوْلى الناس بالرعاية ـ في الحقّ ـ هي بنت رسول الله ﷺ.

ويعلم كم كان الرسول ﷺ يُحبُّها ويُؤْثِرُها .

ويعلم مَدَى حاجَتِها وزوجها وأولادها إلى هذا القطعة الصغيرة من الأرض .

وأبو بكر يؤثر أن يركب الصَّعْبَ في غبطة ، على أن يقول لابنة الرسول : لا ...

ومع هذا ؟ فقد قالها .. !!

إنه حين آمن بالرسول وبدينه وشرْعته صارت هذه الشَّرْعةُ قانوناً ..

وإيمانُه بالقانون لا ينفصل عن إيمانه بالله ورَسُوله ..

ولقد قال الرسول ﷺ: نحن معاشِرَ الأنبياء لا نُورَث .

إذن ، فقد صار حكماً من أحكام الشريعة التي يؤمن بها ألا يُوَرَّث نبي .

وهكذا وجد نفسه بين ولَاءيْن :

ولائه لرسول الله ﷺ في أحب الناس إليه ، وهي ابْنته ..

وولائه للقانون الذي جاء به رسول الله نفسه ..

ولم يكن له أن يتردَّد ..

فهو رجل لا يحمل إيمان العوام .. بل إيمان العباقرة .

الإيمان الذي لا تُثْنِي عزيمتَه قُرْبى أو مُجاملة ...

ولم تكد السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ تسمع جواب أبي بكر عن مسألتها حتى اكْتَسى وجهها بالأسى والألَم .

والصِّدِّيق يعلم أنها أسرع الناس إلى طاعة رسول الله، وأنها لا تخالف أبداً عن أمره .. ولكن قد يُخامرها الشك في أن الرسول ﷺ قد قال هذا الحديث ، وشرع هذا الحُكْم ...

ومِن ثَمَّ أرسل إلى عمر ، وطَلْحة ، والزُّبير ، وسعد بن أبي وقَّاص ، وعبد الرحمن بْن عوْف ، وسألهم أمامها :

« نشَدْتُكم بالذي تقوم السماء والأرض بأمره ، ألَم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال : نحن لا نُورَث ، ما تركْناه صَدَقَة » ؟؟

وأدْلَتْ فاطمة بحجة جديدة ، فقالت للخليفة : إنك تعلم أن الرسول ﷺ كان قد وهبَها لي في حياته ، فهي لي إذن بحقِّ الْهِبَة ، لا بحقِّ الإرْث ...

قال أبو بكر: أجَلْ، أعلم.. ولكني رأيته يقسمها بين الفقراء والمساكين وابن السبيل بعد أن يعطيكم منها ما يكفيكم... وإذن فقد أراد أن يكون فيها حقٌّ دائم للفقراء .

قالت فاطمة : دَعْها تكن في أيدينا ، ونَجري فيها على ما كانت تَجري عليه وهي في يد رسول الله .

قال أبو بكر : لستُ أرى ذلك ، فأنا وَلِيُّ المؤمنين من بعد رسولهم ، وأنا أحقُّ بذلك منكما ـ أضعُها في الموضع الذي كان النبي ﷺ يضعها فيه ... !!

في هذه الواقعة التي واجَهَت الصِّدِّيق في بداية حُكْمه اجتاز إيمانه بالحقِّ وبالقانون امتحاناً لا يُدرِك رهبته ومشقته أحد سوى أبي بكر .

ولقد أصاب في هذا الامتحان ظفراً عظيماً .. !!

* * *

واحترام أبي بكر للقانون لا ينفصل عن احترامه للذين يحملون معه مسئولية رعايته .

فيوم خرج يُوَدِّع أسامة ـ وقد سَبق الحديثُ عنه ـ كان بين جنود هذا الجيش ، عمر بن الخطاب .

وكان أبو بكر حريصاً على أن يبقى عمر بجواره في المدينة . ولقد كان يستطيع كخليفة للمسلمين أن يستبقيه بقرار ينفرد بإصداره ، لكنه يعلم أن في هذا التصرُّف افتياتاً على موظف مسئول ، يجب أن تتوافَر له الضَّمانات التي تُمكنه من أداء واجبه وممارسة وظيفته .

وأُولى هذه الضمانات ألاَّ تَنْتَقِصَ سُلْطة مَّا شيئاً من حقوقه ، حتى لو تكون سلطة الخليفة نفسه .

وهكذا ، اقترب الخليفة من قائد الجيش "أُسامة" ، وقال له في همس ورجاء :

- « إذا رأيت أن تترك لي عمر بن الخطاب ، فإني أجدُ في بقائه معي خيراً ونفعاً » ..؟؟

وبادر أسامة بالرضا والمُوافقة .

إن أبا بكر لم يفعل ذلك مُجاملة ، أو تواضعاً .

إنما فعله واجباً ...

ولو قال أسامة ساعتَئِذٍ : لا ، ما وَسِع الخليفة أن يخالفَ أو يَفْتات .

ومَن شاء أن يرى جَلالَ الحُكم، وعَظَمة الحاكم، فلينظر أبا بكر غَدَاة اسْتخْلافه.

إذ خرج من داره حاملاً على كتفيه لُفافة كبيرة من الثياب .

وفي الطريق يلقاه عمر بن الخطاب وأبو عُبيدة بن الجرَّاح فيسألانه :

- إلى أين يا خليفة رسول الله .. ؟؟

فيجيبهما : إلى السُّوق ..

قال عمر : وماذا تصنع بالسوق ، وقد وُلِّيت أمْرَ المسلمين .. ؟؟

قال أبو بكر : فَمِنْ أين أُطْعِمُ عِيالي .. ؟

لم يُدخل مَنصب الخلافة على النفس الكبيرة أيَّ زَهْو ، ولم يُحرِّك لها رغبة - أيَّ رغبة - في تغيير أسلوب الحياة .

قال له عمر : انطلق معنا نفرض لك شيئاً من بيت المال .

وصحبهما الخليفة إلى المسجد حيث نُودِي أصحاب الرسول ﷺ ، وعرض عليهم عمر رأيه في أن يفرض للخليفة "بدَل تفرُّغ" .

وفعلا - فرضوا له كفافاً... بعض شاة كل يوم ومائتي دينار وخمسين في العام... ثم زيدت بعد ذلك إلى شاة في اليوم وثلاثمائة دينار في العام .

وعاش أبو بكر بهذا هو وأسْرته الكبيرة ، حتى بعد أن فُتح للمسلمين أبواب الرزق والرَّغد ، وبدأت خيرات الشام والعراق تَفِدُ إلى المدينة .

ولم يكن الصِّدِّيق يلتزم القناعة لمجرَّد الزهد ، بل كانت قناعتهُ جزءاً من فلسفته .

فهو يقدس اللقمة الحلال ، ويحاذِرُ أن يدخل جوفه كِسْرة فيها شبهة ..

وهو يرى أن الحلال ليس من الكثرة بحيث يتسعُ للإسراف .

فإذا وُجد سَرَف ، أو ترَف ، فاعلم أنَّ ثمَّة سُبُلاً للعيش غير مَشروعة .

وإن خليفة "محمد" ﷺ لَيُؤْثِرُ أن يَشدَّ على بطنه حَجرين من المَسْغَبَة كما فعل مُعَلِّمه ورسوله ﷺ ، على أن يُدخِل أمعاءه لقمة فيها شُبهة ..

يحدثنا الإمام البخاري في صحيحه أنه كان لخليفة رسول الله غلام جاءه يوماً بشيء فأكل منه ، ولمَّا فرغ من أكله قال له الغلام : أتدري ما هذا يا خليفة رسول الله ..؟

قال أبو بكر : ما هو .. ؟

قال الغلام : إني كنتُ قد تكهَّنْتُ لرجل في الجاهلية ، وما أُحْسِنُ الكهانة إلا أني خدَعْته .. وقد لَقِيني اليوم فأعطاني ، فهذا الذي أكَلْتَ منه ...

« فأدخل أبو بكر يده في فمه حتى قاء كُلَّ شيء في جوفه » .

ـ ويُضيف صاحب الصَّفوة إلى ذلك أنه قيل لأبي بكر :

« يرحمك الله .. كُلُّ هذا من أجل لقمة واحدة » .. ؟!!

فأجاب قائلاً :

ـ « والله لو لم تخرج إلا مع نَفْسي لأخرجتُها .. سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: كل جَسد نَبت من سُحْت فَالنَّار أَوْلى به ، فخشيت أن يَنْبُت شيء من جَسدي من هذه اللُّقمة » ..!!.

* * *

كان إصراره عظيماً على ألاَّ ينال من بيت المال إلا ما يكفيه وأهله بالمعروف .

وما نال من المال وهو خليفة ، ولا نال من مَتاعم الحياة إلا ما كان يأكل وأهله من جَريش الطعام .. وإلا ما كانوا يلبسون من خَشن الثياب .. !!

ويرغم هذا كله ، فحين أدركه الموت دَعا إليه ابنته عائشة رضي الله عنها ، وقال لها :

ـ انظري ما زاد في مال أبي بكر مُنذ وَليَ هذا الأمر فَرُدِّيه على المسلمين .

وكانت روحه الطاهرة تتحرك صاعدة إلى بارئها وهو يردِّد هذه الكلمات ...

تُرى ماذا كان هناك حتى يشغَل بال أبي بكر إلى هذا المدى ..؟

ماذا ادَّخر في أيام خلافته من ثَراء يخاف أن يلقى به ربّه ..؟؟

انظروا ..

إن عائشة حملت تركة أبيها فَور وفاته ، وفَوْر مبايعة عمر . حَمَلَتْها إلى أمير المؤمنين تنفيذاً لِوَصية أبيها ، فما كاد عمر يرى ويسمع حتى انفجر باكياً ، وقال :

ـ "يرحم الله أبا بكر .. لقد أتعبَ كل الذين يجيئون بعدهُ" ..!!

يعني بهذا أن الصِّديق بسلوكه ووَرَعه قد سنَّ نَهْجاً تناهىَ فيَ العظمة ، بحيث يُضْني بلوغُه ومُضَاهاتُه كلَّ خليفة يأتي على أثَرِه .

لماذا انفجر عمر باكياً حين نثِرُت أمامه ثروة أبي بكر ..؟

لقد كان أمراً غير معقول .. هذه التركة التي خلّفها الرجل الذي افْتدى الإسلام بماله .. والخليفة الذي بدأت تنثال في أيامه خيْرات الشام والعراق ..

ها هو ذا ، الميراث الذي خلّفه أبو بكر ، والذي أصرَّ على أن يُردَّ إلى بيت المال .

* بعير ، كان يستقي عليه الماء ..!!
* ومِحْلَب ، كان يحلب فيه اللَّبن ..!!
* وعَباءة ، كان يستقبل فيها الوفود ..!!.

* * *

هذا هو الإنسان الكبير البارُّ الذي جعل شعار حياته ، وشعارَ حُكمه "لَستُ بخيركم" ..!!.
وإنه لا يردِّد هذا الشعار تواضُعاً ، بل يُعبِّر به عن جوهره ويُضمِّنُهُ أسمى مبادئ سُلوكه ..
فهو ـ حَقاً ـ لا يرى نفسه خيراً من أحد .

* لقد أنزل الله فيه قرآناً :
﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ ..

* ولقد كان قبل الإسلام واحداً من أعلام قريش وسادتها ..

* ولقد أخذ مكانه، في الإسلام من أول لحظة إلى جوار رسول الله ﷺ فلم يتقدم عليه أحد ..

* ولقد أسلم وهو في أوج ثرائه ، فلم يدَّخر لنفسه ولا لأهله درهماً ، وبذل في سبيل الله كل ثروته ـ يحرِّر الأرقَّاء ، ويُطعم الطعام على حُبِّه مسكيناً ، ويتيماً ، وأسيراً ..

* ولقد بلغ من إعزاز الرسول ﷺ له أن أمر بإيصاد جميع الأبواب التي كانت تُفْتَحُ على المسجد ، إلا باباً واحداً أمر أن يبقى .. هو باب أبي بكر ...

* ولم يكن الرسول ﷺ يغضب لنفسه قط .. لكنه لم يكن يصبر على أيِّ إساءة طَفِيفَة تُوَجَّهُ إلى أبي بكر .

* ولقد استخلفه الرسول عليه الصلاة والسلام على الصلاة ، وأصرَّ على استخلافه ..

* ولقد بايَعه المسلمون بعد النبي ﷺ خليفة لهم وإماماً ..

* ولقد تحدَّته فتنةُ الرِّدَّة تحدِّياً رهيباً ، فنصره الله عليها نصراً مؤزَّراً ..

* ولقد رأى أبراج الروم والفرس تتداعى تحت سنابك خيله ، وأقدامِ جُنده ، ورأى العالم القديم كله يبدأ رحلة فنائه تحت خَفْق راياته الظَّافرة ...

كل هذا ولم تتسلَّل إلى نفسه همسة بأنه خير من أحد ..
بل كان دوماً ، يُمسك قلبه بيمينه ، ويجأر بدعاء رسول الله ﷺ :
ـ « يا مُقلِّب القلوب ، ثَبِّت قلبي على دينك » ...
إنه وهو صاحب هذا الإيمان الذي يكفي أهل الأرض جميعاً ، يخاف على قلبه أن يَزيغ ...
ويقول وهو يبكي: "يا لَيتني كُنت شجرة تُعْضَد" ..
فإذا ذُكِّر بمقامه عند الله أجاب :
ـ « والله لا آمنُ لمكر الله ، ولو كانت إحدى قَدَمَيَّ في الجنة » ..
من هنا كان قوله: "لست بخيركم" تعبيراً أميناً عن طبيعته ، وفِقْهِهِ .
ومن هنا كان نَأيُه الشديد عن كل مظاهر الزَّهْو والاستعلاء .

* * *

ولقد حقق "الصِّدِّيق" هذا المبدأ تحقيقاً جعل حياته العظيمة نسيج وحدِها .

* فهو يوم كان يملك ثراءً عريضاً ، سأل نفسه: لماذا يتنعم بهذا الثراء والمسلمون في فاقة ..؟؟

هل هو خير منهم ..؟

وأجاب نفسه قائلاً: لستُ خيراً منهم.. وإذن فلْنكن في هذه النَّعماء سواء...

وهكذا أقْرض الله كل ماله ، حتى لقد سأله الرسول ﷺ يوماً: « ماذا أبقيت لأهلِك يا أبا بكر » ..؟؟

فأجاب: « أبقيتُ لهم الله ورسوله » !!

وهو حين صار خليفة للمسلمين ، وحين فتح الله عليهم من الرزق والخير ما يسمح له بأن يعيش في رغد وسَعَة ، رفَض أن يتقاضى من بيت المال أكثرِ مما تتطلبه ضرورات العيش ، وأكثر مما ينالُ أيُ بيت من بيوت المسلمين يضم من الأنفس ما تضمُّه أسرة أبي بكر .

* ولقد سأل نفسه: لماذا يأخذ أكثر مما يستحق ..؟

هل هو خير من الآخرين حتى يختص نفسه بمزيد ..؟

وأجاب نفسه بأنه ليس خيراً من أحد.. وإذن فَليَعِش في مُستوى المواطن العادي في أمَّته وجماعته، مع أنه يوم كان يعيش من ماله ومن تجارته كان مُستوى معيشته عند مُستَوى دَخله .. رغَدٌ كثير ونفقة واسِعة ...

فلمَا وَلِيَ أمر الناس دَحَض كل ما من شأنه أن يخصَّه بامتياز ـ أيَ امتياز ... وردَّ جميل الذين اختاروه خليفة عليهم بأن فرض على نفسه مساواة كاملة بهم ، وجُهْداً مضنياً في سبيلهم ..

وإن عظمة أبي بكر ـ ومِن بعده في هذا الفاروق عمر ـ لَتتمثَّل أكثر ما تتمثَّل في أنهما سلكا ذلك المسلَك النادر المثال ، وهما متربعان فوق كرسي الخلافة .

وأين ..؟؟

في أمَّة جديدة .. جديدة بكل معاني الكلمة ، تقرع أبواب العالَم ، ويُعانق النَّصر راياتها في كل مكان .. !!

ولقد كان لابد لحكام أمة هذا شأنها ، أن يستحوذ عليهم قدْر من الزَّهو ، ومن الاستمتاع بالحياة مهما يكن زهدُهم ووَرعُهم ! ..

لكنَّ شيئا من هذا لم يحدث قطُّ ، بل حدث النقيض .

فعاش "أبو بكر" مع دموعه الخاشعة ، يردِّد عبارته المأثورة :

"يا ليتني كنت شجرة تُعضَد "..!!

وعاش "عمر" مع دموعه الخاشعة ، يردِّد عبارته المأثورة :

"ياليت أُمّ عمر لم تَلِد عمر"..!!

وكانا ينشُران على الناس أسلابَ كسرى وقيصر ، وهما يسيران في ثوبين ازدحمت فيهما الرِّقاع ..!!!

وإذا مات "أبو بكر" الخليفة عن بعير ، ومحلب ، وعباءة ، أَصرَّ على أن تردَّ إلى بيت المال .

يا سكّان هذا الكوكب الذي نعيش فوقه ...
هل عندكم لهذه النماذج الطاهرة نظير ..؟؟
ألا إنها مدرسة القرآن ...
ألا إنها مدرسة محمد .. عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ..!!.

* * *

إن هذه العبارة الحافلة: "لستُ بخيركم" .. تُصَوِّر لنا جوهر الشخصية الفريدة التي كانها أبو بكر الصِّدِّيق .

فهو مُنذ أسلم ، وقبل أن يكون خليفة ، يضع نفسه من الناس في موضعٍ سَواء ...
ولْنُصغ الآن إلى "ربيعة الأسلمي" صاحب رسول الله ﷺ :

ـ "كان بيني وبين أبي بكر كلام ، فقال لي كلمة كرهتها ، ثم نَدم عليها ، وقال لي: يا ربيعة ، رُدَّ عَلَيَّ مثلها حتى تكون قصاصاً ..
قلت : لا أفعل ..
فقال لي : لتأخذنَّ بحقِّك مني ، أو لأشكُونَّك إلى رسولِ الله ...
قلت : ما أنا بفاعلٍ .
فذهب عني منطلقاً إلى النبي عليه السلام ، وانطلقتُ وراءه ...
فجاء ناس من "أسْلم" فقالوا: يرحم الله أبا بكر .. في أيِ شيء يستعدي عليك الرسول ﷺ ، وهو الذي قال لك ما قال ..!
فقلتُ لهم: اسكتوا ، هذا أبو بكر .. وهذا الذي قال الله عنه ـ ثانيَ اثْنَيْنِ إذْ هُما في الغار ـ إيّاكم لا يلتفت فيراكم تنصرونني عليه فيغضب ، فيغضب رسول الله لغضبه ، فيغضب الله لغضبهما ، فتَهلِك ربيعة ..
وانطلقتُ وراء أبي بكر حتى أتى الرسولَ ﷺ فحدَّثه بما كان ..
فرفع إليَّ رسول الله ﷺ رأسه وقال : يا ربيعة ، ما لكَ والصِّدِّيق ..؟
قلتُ : يا رسول الله ، إنه قال لي كلمة كَرِهْتُها ثم طلب إليَّ أن أردَّها عليه لتكون قَصاصاً فأَبَيْت ..
فقال الرسول: أحسنتَ يا ربيعة ، لا تردَّها عليه ، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر ..
فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر..
فولَّى أبو بكر وهو يبكي"..!!
والآن ، فلننظر ..
إنها كلمة واحدة ندَّتْ عن لسانه فَلْتَة ..
وهي كلمة لا يمكن أن تكون من فُحْش القول أبداً ؛ لأن أخلاقه لم تكن تسمح له بهذا ، ولم يُؤثَرْ عنه ـ حتى في الجاهلية ـ شيء من هذا .

هي كلمة هيّنة ، ولكنها أصابت من ربيعة مَوْجعاً.. فإذا أبو بكر يُزَلْزَلُ من أجلها ، ويأبى إلا القَصاص عليها ، مع أنه يومئذٍ كان الرجل الثاني في الإسلام بعد رسول الله .

ولكنْ لِمَ لا يصنع ما صنع ، وهو يرى الرجل الأول نفسه .. رسول الله الكريم ، يقف الموقف نفسه وينهج النَّهْج نفسه . وكزَ رجُلاً في صدره وهو يُسوّي صفوف المقاتلين في إحدى الغزوات ، حتى إذا رأى الوكزة قد آلمته ، يكشف عن صدره ، من فَوره ، ويُصر على أن يَكِزَهُ وكْزَةً مِثْلها ..؟!!

ويروى لنا "أبو الدَّرْداء" نَبَأً شبيهاً بهذا ، فيقول :

ـ "كنتُ جالساً عند رسول الله ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبْدَى عن رُكبتيه ، وقال: يا رسول الله ، إنه كان بيني وبين عمر بن الخطاب شيء ، فأسرعت إليه نادماً وسألْتُه أن يغفر لي فأبى عَلَيَّ ..

فقال له الرسول ﷺ: « يغفر الله لك يا أبا بكر » ..

ثم إن عمر ندم ؛ فأتى منزل أبي بكر فلم يجده .. ثم أتى النبيّ ﷺوقال: يا رسول الله أنا كنتُ أظلَم .. يا رسول الله : أنا كنت أظلَم ...

فقال الرسول ﷺ " إن الله بعثني إليكم ، فقلتُم كَذَب .. وقال أبو بكر : صدَقْت .. وواساني بنفسه ، وماله ؛ فهل أنتم تاركون لي صاحبي ..؟ فهل أنتم تاركون لي صاحبي ..؟"

إنه حين تندُّ منه كلمة عابرة لعمر ، أو لربيعة الأسلمي لا يقول لنفسه: لا بأس ، وسيغفرها الله لأبي بكر ، صاحب كل جليل من المواقف .. وباذِل كل عظيم من التضحيات .. لأن ما أنعم الله به عليه من التوفيق ورفيع الخصال لا يبتَعثُ في نفسه الزَّهْو ، بل يُطالبه بالشكر ويَحثُّهُ إلى التواضع والعِرفان ...

* * *

هكذا كان جَوْهر علاقته بالناس جميعاً قبل الخلافة وبعدها ..

ليس خيراً منهم ..

ولكنَّه واحد لا تميِّزه عنهم سوى فضائله الباهرة ، وعظمته السَّامقة ..!!

■ ■ ■

حالبُ الشَّاة .. يا أمّاه !!

كانت بساطُته ، أهم عناصر عظمته .. وكان قبل أن يصير خليفة يُقَدِّم لأهل الحيّ الذي يسكنه خدمة تناهَت في الطرافة والروعة .

فقد كان في جيرته بعض الأرامل العجائز اللائي مات أزواجهن أو استشهدوا في سبيل الله .

كما كان هناك بعض اليتامى الذين فقدوا آباءهم ..

وكان رضي الله عنه يَؤُم بيوت الأُولَيات فيحلُب لهن الشِّياه .

ويؤم بيوت الآخرين فيطهو لهم الطعام .

ولما صار خليفة ، تناهى إلى سمعه حَسْرة العجائز ، لأنهن سَيُحْرَمْنَ منذ اليوم من الخدمة الجليلة التي يؤديها لهن الرجل الصالح ..

ـ لكنَّه أخلف ظنونهن.!!

* * *

وذات يوم ، يقرع باب إحدى تلك الدُّور ، وتسارع إلى الباب فتاة صغيرة لا تكاد تفتحه حتى تصيح :

ـ "إنه حالِب الشاة يا أمّاه "...

وتُقبل الأم فإذا بها وجهاً لوجه أمام الخليفة العظيم، فتقول لابنتها في حياء:

ـ "وَيحك ، ألا تقولين خليفة رسول الله" .. !؟

ويُطرق أبو بكر ويُهمْهِمُ مع نفسه كلمات خافتة ..

لعلَّه كان يقول: دعيها ، فقد وصَفَتْنِي بأحب أعمالي إلى الله ..!!

وتقدَّمَ حَالِبُ الشاة ليؤدي الواجب الذي فرضَه على نفسه .

أجَل ..

حالِب الشياه للعجائز ..!!

والعاجن بيديه خبز الأيتام ..!!

بَساطة ، ورحمةٌ ، تفانياً في أداء حقّ الحياة ..!!!

تُرى لو قُدِّر لأبي بكر بشمائله هذه أن يكون رئيس دولة في عصرنا الحديث ، أكان منهجه هذا يتغيَّر ..؟؟

كلا ..

صحيح أنه لن يحلب الشياه ، ولن يطهوَ بيده الطعام ..

بيد أنَّ شمائله تلك ، كانت ستُعبِّر عن نفسها في مشاهِدَ كهذه تُنَاسِبُ روحَ العصر دُون أن تَبخَس نفسها في شيء ..

إن بساطة هذا الإنسان البارّ ، وإن رَحمتَهُ لَمِن الأمور المعجزة ..

ولقد أعطاه الرسول ﷺ حقَّهُ حين قال عنه: "أَرْحَمُ أُمَّتِي بأمتي أبو بكر" .

لقد كان يحمل قلباً مشحوذ الإحساس بكل ألم إنساني .

وكان يملك إرادة مباركة تسارع إلى إنجاز تَوْصِيات قلبه الرشيد الودود ..

* * *

كان في بَدء إسلامه لا يطيق أن يرى مؤمناً يتعذب ، وكانت نفسه تَنُوء بالألم حين يكون أولئك المعذَّبون رقيقاً ، ومن ثَمَّ وضع ثروته في سبيل تحريرهم ، وحَرَّرَهُم جميعاً بماله .

بلال .. عامر بن فهيرة .. زُبَيْرَة .. أم عبس .. النَّهدية ، وابنتها .. جارية ابن عمرو بن مؤمِّل .. وغير هؤلاء ..

وكان عظيماً ، وهو يُشعر هؤلاء الأرقاء أنه لا يحررهم ، بل يُحرِّرُ نفسه قبلهم .. لأنه وقد آتاه الله المال ونعمة الإسلام بات واجباً عليه أن يُحطِّم من الأغلال الظالمة كل ما يستطيع تحطيمه ..؟؟

حين افْتدى بلالاً ، قال له سيده ـ تحقيراً منه لشأن بلال ـ :

"خذه فلو أبيتَ إلا أوقية واحدة لبعْتُكَهُ بها" .

فأجابه أبو بكر قائلاً: "والله لو أبيتم إلا مائة لدفعتها" ..!!

ومن الطريف أن يتناقل الناس في مكة أن أبا بكر يبذل في سبيل تحرير العبيد من ماله بَذْلَ السَّماح ، فيعمد بعضهم حين تنتابه أزمة مالية إلى إنزال العذاب بعبده ، كي يُسارع أبو بكر لنجدته ويتقاضاه السيد ثمناً يدفع به ضائقته وأزْمته ..!!

إنه رحيم أوَّاب ...

إنه إنسان انتهى إليه كل ما في الإنسانية من حنان ونَجدة !!

ولقد خُلِق هكذا .. وخُلِق لهذا ..

في أيام الجاهلية كان ذلك خلقه ..

لم يُعرف عنه مرة واحدة أنه قاتلَ ، أو شاتَم ، أو أساء ، أو تخلّى عن مُروءة ، أو بَخِلَ بماله أو جاهه .

فلمَّا أسلم أُضيف إلى صِدْقِ فطرته، صدقُ دينه..

* * *

وكان "رَبَّانيًّا" في كل مشاعره وسُلُوكه .

يعبد الله كأنَّه يراه .. ويُعامل الناس جميعاً كأنهم أبناء الله .

ذهب عمر بعد وفاته يسأل زوجته "أسماء بنت عُمَيْس" : كيف كان أبو بكر يعبد ربه حين يخلو بنفسه ، فأجابته قائلة :

- "كان إذا جاء وقتُ السَّحَر قام فتوضأ وصلَّى .. ثم يظلُّ يُصلِّي .. يتلو القرآن ويبكي .. ويسجد ويبكي .. ويدعو ويبكي .. وكنتُ آنئذٍ أَشَمُّ في البيت رائحة كبد تشوَى " ..!!

فبكى عمر رضي الله عنه وقال :

- "أنَّى لابن الخطاب مثل هذا" ..؟؟

رائحة كبد تشوى من بيت أبي بكر..؟؟

الرجل الطهُور الذي لا يكادُ يعرف له خطأ، يحمل كل هذه النفس الْمُوَلْوِلَةِ من خَشية الله ، وكل هذه الجوانح الْمُتلَظِّيَة من رَهبته ..!!

أجَل .. إن إجلاله ربَّه وتوقيره كانا يملآن نفسه روعة ، يملآنها حياء ، وإخباتاً ..

ولقد كان يعلم علم اليقين أن من تمام توقيره ربه ، توقير عِباد هذا الرب العظيم ..

وهكذا ، لم يكن في علاقاته بالناس يسير وَفْق ما ينبغي فَحسْب ... بل وَفْقَ "الرَّبانيَّةِ" التي أسْكنها الله في قلبه وضميره ...

فهذا الرجل "الإلهي" لا يعطي الناس من ذات نفسه ما ينتظرون .. بل يُعطي ما يقدِر هو على إعطائه ، وإنه ليقدر على كثير وكثير .

ومن ثَمَّ رأيناه دَوْماً المبادِرَ المقدام نحو كل واجب ، نحو كل أزْمة .. ونحو كل تضحية ..

والمُسْتَوَى الذي تعمل عنده فضائله المتفوقة مُستَوى واحد ومتكافئ ..

فالروح المستبسلة التي واجهَتْ أزمات الدعوة في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته - هي نفس الروح التي دفعت صاحبها إلى أن يحلُب الشياه للأيامى .. ويعجن الدقيق لليتامَى ..!!

* * *

وبَساطةُ خُلُقه تتواءم مع بساطة خَلْقه ، وكما أن بساطة شمائله تتضمَّن عظمة خارقة . فكذلك كانت بساطة تكوينه تتضمَّن شخصية خارقة ..!!

وإذا أردنا أن نرى صُورَة التكوين الجَسَدي لهذا السيد الجليل، فها هي ذي الصورة كما تُقدمها ابنته السيدة عائشة - هو :

- " أبيض ... نحيف ... خفيف العارضيْن ... أحْنَى الظهر .. معروق الوجه .. غائر العينين .. ناتئ الجبهة .. عاري الأشاجع .."(١) .

هذا هو الرجل الذي اختارته الأقدار ليكون على رأس أساتذة البشرية جَميعاً في فن الإيمان والعَظَمة ..!!

---

(١) الأشاجع : عُروق ظاهر الكف .

هذا هو الرجل الذي اختير لتكون أيامُه السطورَ الأولى في نَعْي أعظم إمبراطوريات عصره وعالَمه ـ الروم وفارس ..!!

وليكون أول خليفة لرسولٍ ، سيسير دينه كالضوء مُشرِقاً ومُغرِباً ، صانعاً حضارة تملأ الدنيا ، وتُسعد الناس ...

أجَل .. وفي هذا الجسَد الناحِل وَجَدَتِ العظمة منزلاً لها ومُقاماً ..!

إنه لا يملك جِسْماً "مَلَكيًّا" ، وليس في تكوينه شيء من سِمات الأباطرة ...

لكأنَّ الله علم من عبده الصالح هذا ، أنه لن يضيق في حياته بشيء مثلَ ضيقِه بأن يمَيِّزَه عن الناس شيء يجعله مَهْوَى أعينهم المبهورة، فاختار له هذا المظهر البسيط والتكوين العادي ..!!

انظروا وصْف ابنته له : "غائر العينينِ ... معروق الوجه.. نَاتِئُ الجبهة" . !!

أجل .. لا شيء غير عادي في سيِّد قريش ، وخليفة الرسول ﷺ ، وقاهر جيوش الردَّة ، وحالب شياه الأيامى .. !!

لا شيء غير عادي ، اللهم إلا ذلك اللألاء المُشعُ من عينيه اللتين تُرسلان سَنَاً عجيباً ، وألقاً باهراً ، كأنهما كوكبان دريّان ..!!!

وإنهما لَهَاجِعَتان تحت جبهته العالية ، وجبينه المُتَّئِد ، تنعكس عليهما كل ما في قلبه من ضياء ، وقوة، وحُب ...

فإذا وقَعَتا على أسًى ، الْتمعتَا بفيض من الحنان والرحمة والنجدة ..

وإذا وقعتا على ظلم ، توهَّجَتا باللَّهب المقدَّس ..

وإذا وقَعَتا على وجه إنسان ، قرأتاه في لحظة ...

وإذا استقبلَتا آية من آيات الله ، فاضَتَا بالدمع خشيةً وإجلالاً ..!

إنهما عينان غائرتان حقًّا ، لكنهما خُلِقَتا لِترَيَا الحقَّ وتهتديا إليه في غير عَناء ..

وجَسدُه نحيل ضامر ، لكنه يتفجَّر حيوية وطاقة ..

وفي داخل هذا الجسد المتواضع، تقيم روح من أعظم أرواح بني الإنسان ..!!!

* * *

وبعد ..

فهذا هو الصِّدِّيق ..!! لا يرفع الكاتبون مِن قَدره بما يَسطرون عنه وعن فضائله ، إنما يرفعون من أقْدار أنفسهم حين يُؤهِّلونها للحديث عن هذا الطَّوْد الشامخ العظيم ..

ولقد كان رضي الله عنه أكثَر الناس حياءً إذا أُلقِيَتْ عليه كلمة ثناء ..

حين ذاك ، كان الدمع يُبَلِّل عينيه ، ويُردِّدُ ابْتهاله المأثور :

ـ " اللهم اجعلني خيراً مما يظنون .

واغفر لي ما لا يعلمون ..

ولا تُؤاخذني بما يقولون .. " !

* * *

يرحَمُك الله ، أبا بكر..

إنك دوماً ، وأبداً ، لخَيْرٌ مما يظنون .. !! وخيْرٌ مِمَّا يَسْطُرون ..!! .

■ ■ ■